عُرس على صفيح ساخن

الرواية الفائزة بجائزة السرد اليمني (حَزَاوِي) ٢٠٢٢م

❖ اسم الكتاب: عرس على صفيح ساخن

❖ الكاتب: أحمد قاسم العريقي

❖ تحرير وتقديم: رياض حمّادي

❖تدقيق لغوي: محمد عبداللطيف و وليد مانع

❖إخراج داخلي: سليل الفراعنـــة

❖لوحة الغلاف: منال سيف

❖ رقم الإيداع: 8086 / 2023

❖ الترقيم الدولي: 978-977-86580-5-7

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية.

حزاوي للتنمية الثقافية ٢٠٢٣ ©

بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل

YKB Inspiring the future

yk-bank.com

HAZAWI

9 789778 658057

أحمد قاسم العريقي

عُرس على صفيح ساخن

(فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزَاوِي) ٢٠٢٢م
برعاية بنك اليمن والكويت)

بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com
HAZAWI

المَشاهد

- ♣ الفصل الأول: ملكة جَمال العُرس
- ♣ الفصل الثاني: إنهم يحاصرون الفرح
- ♣ الفصل الثالث: الأمل المفقود
- ♣ الفصل الرابع: المُحاكمة
- ♣ الفصل الخامس: فتاة تؤذّن لصلاة الفجر
- ♣ الفصل السادس: السقوط في الخراء
- ♣ الفصل السابع: السماء تمطر وحلًا

❊ ❊ ❊

ملكة جَمال العُرس

ترجّلت العروس من السيارة أمام باب صالة "حي السعادة"، بوجهٍ بلاستيكي أبيض كالثلج، وخدَين ورديين، ورموش يقف عليها الطير... تساعدها امرأتان تحملان خلفها ذيل ثوبها الطاووسي. يلوح الحزن على وجهها بدلًا من الفرح.

لم يفُت "إقبال ناصر التيْس" هذ العرض، فكان أول المستقبلين لها في الباب، يُصفّق ويزغرد. تلك الزغاريد التي طغت على الميكروفونات والمُنشد والفِرقة الغنائية. اصطفت الفتيات أمام العروس يصفّقن، وعملت الحناجر ما لم تستطع أن تفعله في مكان آخر، لتزيل الصدأ المتراكم عليها.

نافس "إقبال" بقوته، مع مجموعة أخرى، على موقع أمام العروس مباشرة، وهن يتراجعن إلى الخلف ووجوههن تقابل وجه العروس، يُصفّقن ويزغردن ويهزجن باسمها "نهلة حَلا تستاهل..."، وهي تغتصب بسمة بلاستيكية على شفتيها. نافسته امرأة لتأخذ مكانه؛ لكنه لم يسمح لها. أمسكت ساعده لتزيحه، وأخبرته بأنها أخت العروس، ستقف هي أمامها. ما كان سيسمح لها لو لم تقل له: "ما شاء الله! ساعدكِ كسواعد الرجال". تلك النظرة أخافته، فيكفي أن الشرطية "صباح" متوسطة الطول في الثالث والثلاثين من العمر، لم تكتشفه عند دخوله الصالة، بل أشادت بثوبه غير المتبرج مقارنة بالمدعوات الأخريات.

أكملن الزفّة، ثم غنى الفنان حسب طلب أهل العروس. جلست العروس على عرش ليلتها، وبدأت تستقبل اللواتي تسابقن للوقوف في الطابور لتهنئتها. كانت تود أن تخلع حذاءها وهي تقف على أطراف أصابع قدميها، والفتيات يرقصن باحترافية أمامها. حينها كان الفنان يشدو بصوت جميل لحنًا تراثيًا:

يا آسري بالدلالْ ما فيشْ لحُسنكْ مِثالْ
سُبحانَ ربّي الجَلالْ مَنْ زيّنكْ بالجَمالْ
... ...

من المتعارف عليه أن تحضر المدعوات الساعة الرابعة عصرًا؛ تكون المدعوة حينها قد استنفدت طاقتها منذ الصباح الباكر، في الوقوف أمام المرآة. أمّا نساء الذوات فيأتين من عند الكوافير مباشرة. لكن في زمن اللا سلم واللا حرب توافدت المدعوات كسرب فراشات منذ الساعة الثانية ظهرًا. خلعن عباءاتهن في باب صالة العرس كما تخلع الوردة تويجاتها الذابلة، وتخلصن من عبءٍ ثقيل يحجب حُسنهن، ونفخن هواءً يثقل صدورهن. كُنَّ قد ازددن جمالًا من صُنع أيادي البشر، يمشين بأزياء باذخة وتسريحات شعر مبتكرة. تبدو الصالة معرض أزياء آخر موضة، أو مسابقة لاختيار ملكة جَمال العُرس. وتفاءل الكثير بعرس الجُمعة الموافق ٢٨ نوفمبر ٢٠١٧م.

رأى "إقبال" فتيات يرقصن برشاقة، فاتجه نحوهن بخفة، وراح يُصفّق، ويقترب منهن ويهتف بصوت مبحوح:

- أيوا! أيوا! أيوا! إلّا! إلّا!... هُزّي يا أختي هُزّي!

فتزهو ذات الثديين الكبيرين، ويضيف "إقبال" وهو ينظر إلى صدرها الرجراج:

- أيوا! أيوا! العب! العب...

يقترب حين تأتيه الفُرصة مِن امرأة ثدياها بارزان كبطيختين كبيرتين. ويفرح حين يرتطم شعرها ببروشه المثبت بعناية على رأسه. يحدث نفسه: "سيكون رائعًا حين يشاهد العالم الوجه الخفي لذوات العباءات السوداء"!

توقف عن الرقص والتصفيق، وراح يمسح بعينيه الصالة الواسعة المكتظة بالمدعوات، وهن في وقفات استعراضية، ومنهن من يسحبن ذيول فساتينهن كالطواويس. ذهب يشاركهن وليمة خفيفة، شاهد وجه امرأة لوحة فنية زاهية الألوان؛ فضحك فجأة بصوت أشبه بنهيق حمار، طار رذاذ الطعام من فمه، فتأففت منه المدعوات. ذهب مسرعًا إلى الحمام وهو يكتم ضحكته ويلوم نفسه على سلوكه الرجولي! حين خرج من الحمام، قابل امرأة ترفع تنورتها للأعلى استعدادًا لدخول الحمام، فاتسعت عيناه ببهجة، ووقف لحظة ليثبّت تلك الصورة.

ذهب ليشاهد العرافة، وهي تجلس أمام مجموعة من النسوة. سمعها وهي تقول لإحدى النساء بصوت عالٍ ليتغلب صوتها على ضجيج مكبرات الصوت:

- الماضي فات، وسأنبئك بما هو آت. ماضيك محسوم، ومستقبلك مرسوم. هناك شاب أمامك، هو رجل أحلامك، نحيف، أسنانه سوداء، لكن طريقه مسدود.. (أشارت لإحدى الودع المبثوث)

انظري، هناك شخص طويل، أسمر، يقف حائلًا بينكما. الحبيب مثل الطبيب، يملك الروح، ويداوي القلب المجروح، فلا تخسريه، ودعي له باب قلبك مفتوح.

تقدمت فتاة جميلة في بداية العشرينات من العمر لترى حظها. اختارت إحدى الودع، وناولت العرافة فراحت هذه تقول لها:

- تنامين ملء جفنيك والسعادة بين يديك. أنت قُرة عين الحبيب، عينه عنكِ لا تغيب. أراه الزين المختار، لكن يا خسارة! تتناوشه الأخطار، وبحاجة إلى أنصار. حولك تطوف عين الحسود، وبحاجة إلى حجاب لتهنئي بليالي السعود.

أخذت تشير إلى تلك الودعة المختارة وهي تحدّق فيها وحولها العديد من الودع، ثم قالت:

- سيفُّك الله ضيقه، وسيسهل طريقه، وسيهجر البلاد، ويحصل على المراد، ويعود لتلتقي الأرواح والأجساد.

قرأت العرافة الحظ للمجموعة، إلا واحدة منهن لم تؤمن بالحظ. لم تكن العرافة تدري أنها مراقبة من قبل الشرطية "صباح" إلا حين هرعت إليها الأخيرة وعادت من عندها وهي مسرورة. وكان هناك ضمن من يراقبها أيضًا الصحفية "نوال"، التي دوّنت في تلفونها: "عرافة تحتال على عُرس وتسحر الكثيرات"، وبعثت برسالة نصية إلى موقعٍ صحفي...

وقف "إقبال" بالقرب من باب الاستقبال، وكلما شاهد فتاة جميلة أسرع ليسلّم عليها بُقبلة على الخد كأنه يعرفها. يشيد

بحسنها، ويربّت على ظهرها، والبروش يكاد أن يلتصق بشفتيها، ويتأخر قليلًا لتثبت الصورة!

اتخذ "إقبال" مجلسًا على مقربة من الباب، وانظم إلى مجموعة أم فاتن، المكونة من: كريمة، حُسن، رُقية، سارية، وسعيدة. يشوّه الخد الأسيل كُرة صغير من القات. كانت أم فاتن قد أحضرت الشيشة والمُعسل البحريني الفاخر، والفحم. تنسّم "إقبال" ذاك التبغ العَطر خِلسة. أحست به أم فاتن ودعته ليشاركها الشيشة. قالت:

- تفضلي يا ابنتي، شاركينا الدخان، بحريني مُعتبر!

باشر يسحب الدخان لأول مرة، وعلت قرقرة الشيشة؛ فقالت أم فاتن:

- ما شاء الله يا ابنتي، أنتِ مثل زوجي، يخلي[1] صوت الشيشة مثل صوت المداعة!

ضحكت أم فاتن وسعل "إقبال" ولعن سلوكه الرجولي، وأخذ يحدث نفسه: "إنها مهمة صعبة أن نُقلّد النسوة!".

وبينما النسوة يرقصن على أنغام أغنية "كافي كافي"، كان المدعوون من الشباب في صالتهم يرقصون أيضًا على أنغام الأغنية نفسها. والعريس ما يزال واقفًا منذ الساعة الواحدة ظهرًا، يستقبل المُهنئين، مُعرِّضًا خدّيه للتقبيل. أمامه طابور طويل من المدعوين الذين حضروا للتهنئة وللتقرب

(١) يجعل.

من شاب يصاهر رجلًا من ذوي الشوارب الطويلة المتفاخرة بجر الحقائب المثقلة بالأوزار.

حضر المدعوون إلى صالة العرس باكرًا، مستعجلين مضغ القات المختار بعناية أفضل من غدائهم. لم تكن صالة الرجال ملوثة بدخان الشيشة كصالة النساء؛ لكن بعضهم يزيدون مفعول القات بـ"الشمّة" السوداء، ومشروب الطاقة ماركة "الثور الأحمر"!

خفّ توافد المدعوات. وكان "إقبال" قد انتقل إلى مجموعة أخرى أمامهن القهوة والقات الرخيص. رأى إحداهن عليها فستان لا يبدو للتباهي، وهي تتحدث عن قريتها الصغيرة، وكيف أنها قدمت عشرين شهيدًا ضد العدوان و"الدواعش"، وأن أخاها عمره سبع عشرة سنة، رفض الزواج وذهب خفية لينال الشهادة في مدينة "تعز"... ثم راحت تشتم الأمريكان واليهود وتدعو إلى مقاطعتهم.

كانت "نهلة" تجلس على كرسي العرس، كأنها على صفيح ساخن، قلقة في اليوم الذي انتظرته منذ سنتين؛ مما أثار فضول البعض. تسأل أختها لو أنها تتصل لـ(مجيب المِقدام) يحضر لأخذها من الصالة بسرعة؛ فما شاهدته في الشارع أثناء مجيئها ينبئ بحرب وشيكة في المدينة. الأحداث المؤسفة لم يجف دمها بعد، تلك التي حدثت قبل الاحتفال بالمولد النبوي، قبل أيام قليلة، في ميدان السبعين، بين الحرس الجمهوري و"أنصار الله" أمام "جامع الصالح"، وأحداث الليلة الماضية، ليلة الخميس، في الحي السياسي، واحتمال تجدد المواجهات بين الطرفين، ونشوب حرب مفاجئة في المدينة. لكن أختها هدّأت من روعها بأنه لن يحصل شيء، وأن تخوّفها

في غير محله، فالبلاد منذُ ثورة الحادي عشر من فبراير ٢٠١١م في حالة استنفار.

كانت هناك امرأة كبيرة في السن لم تستقر في مكان واحد، تنظر بنظرات فاحصة في وجوه الفتيات. رأت فتاة نحيفة وجميلة، فجلست بجوارها تتعرف عليها، وأخيرًا قامت من جوارها وهي مستاءة! دفع الفضولُ "إقبال" ليسأل الفتاة. قالت له:

- تريدني أن أفسخ خطوبتي لتزوجني ابنها!

كان يريد أن يملأ عينيه بحسنها الخلاب؛ لكنه رأى امرأة واقفة تخفي مسبحتها، فاصطحب امرأتين، إحداهما "سامية"، فتاة غير جميلة لكنه رأى أنها ستفيده في غرضه. همس في أذن "سامية" بشيء ما، فضحكت بمجون. ذهبا إلى "سميرة"، وتقدمت سامية تسألها:

- أين مسبحتك يا بتول؟! جئتِ عرسًا أم مولدًا؟! هيّا، قومي ارقصي معنا! أنا سأعلمك الرقص!

هزّت سامية ثدييها، وحرّكت عجزها أمامها بِخفّة، ثم شدتها من يدها لتقوم، ودفعها "إقبال" والأخريات إلى حلبة الرقص، والمسبحة ما تزال في يدها. ربطت سامية شالًا حول خصر سميرة؛ لكن الأخيرة أبعدته وهي مستنكرة. كانت سميرة تود العودة إلى مكانها وهي تستغفر ربها؛ لكنها لم تستطع، والفتيات حولها يشجعنها على الرقص. كانت صديقتها مريم ترقب المشهد بمكر، تود لو أن سميرة ترقص؛ لتقوم هي أيضًا تشاركها الرقص. عادت سميرة إلى جوار صديقتها وقالت بغضب:

- لماذا أحضرتني إلى هنا يا مريم؟! إنها حفلة ماجنة!

ذهب "إقبال" إلى الحمام؛ ليراقب وجهه المطلي بمساحيق من النوع الرخيص، ثم عاد ومر بجوار مجموعة يتفاخرن بأحزمة الذهب حول خصورهن رغم بدانتهن، والعرافة تقرأ لهن الحظ والمستقبل. إحداهن قالت:

- قرأتِ حظنا، هيّا أخبرينا عن حظ بلادنا ومستقبلها!

كان لديها ودع إضافي. جمّعت قطعها معًا ثم رمتها على الأرض، وراحت تتمتم كأنها تحدّث أحدًا. أشارت إلى بعض قِطع الودع وقالت بحزن:

- أرض حلوب، وشعب مغلوب، ومُدّعٍ حُبّه كذوب، لا يرى إلا نفسه، يخدع بني جنسه، نصره عرسه. أرض تُمزق، بدمائها تغرق، الكبير فيهم يسرق، والقائد يرى بغير عينيه ويسمع بغير أذنيه، لسانه للغير، ومقيد عن السير، يرى البيع شراء، والصدق غباء، والفقر رخاء. الجهل سلطان على الرجال، والعِلْم يمد كفّ السؤال!

حدّقت بالودع أكثر حين رأت قطعة تنقلب. قالت بفزع أخاف النسوة حولها:

- سيموت قائد كبير، أكبر من مشير، بيده الحديد، موته للبعض عيد. تنطفئ نجومه، وتسير تلومه، وتكون من خصومه. يعلو نجم الشمال، وتعترك الرجال. يُكشف الحجاب، وينتهي ضرب الرقاب، ويعود مطر السحاب، والحق هو الغلّاب.

جلس "إقبال" مع تلك المجموعة، وهن يتحدثن عن حادثة قصف الصالة الكبرى، أثناء عزاء واحد من ذوي الشوارب الطويلة، وأن المسعفين الشرفاء الطيبين المنقذين أخفوا "الجنابي"[٢] خوفا من اللصوص، ولم تظهر بعد...

كانت الصحفية نوال تتابع العرافة وقد انتفخ بالمال جيبها وبين ثدييها، كما تتابعها الشرطية صباح. دونت الصحفية في التلفون: "عرّافة تتنبأ بموت قائد كبير، وتثير الهلع في صالة العرس".

***

الجمعة، الثالثة عصرًا:

عند تحليق الطائرات المقاتلة في سماء المدينة، تضع بعض المدعوات أيديهن على رؤوسهن دون شعور. قالت مدعوة لإحداهن وهي تنفث في وجه "إقبال" دخان مُعسّل يصيب بالدوار:

- للمه[٣] تخافي؟! ما عاد يقصفوا صالة النساء... وإن قصفوها سنكون شهيدات!

ضحكت امرأة أخرى وقالت:

- ما عا يدّوا[٤] لنا في الجنة؟! وِلْدان مخلدون؟!

---

(٢) خنجر.

(٣) لماذا؟

(٤) يعطون.

تخضّبت دموع الضحك بالكُحل وخطّت مساراتها في الخدود. إحداهن سقطت رموشها الصناعية ولم تستطع تثبيتها. أما "إقبال" فكتم ضحكته الرجولية، وضغط على مؤخرته حتى لا يضرط؛ لكنه فعلها، فخجلت النساء من حوله.

توقف الغناء أثناء أذان العصر. قامت بعضهن للصلاة مباشرة لأنهن كُن على وضوء، بينما أخذت أخريات يمسحن وجوههن بخفة في الحمام. ضحكن من امرأة أفسد الوضوء زينة وجهها وظهرت بقناع مشوّه. نصحتها إحداهن باستعمال مثبّت ماكياج أصلي ماركة "شِلْد". ذهب "إقبال" ليصلّي جماعة، واتخذ له مكانًا في مؤخرة المُصلّى. كان يركع بعدهن بلحظات... وحين انتهت الصلاة قام دون أن يُسلّم.

بلغ عدد المدعوات حوالى خمسمائة امرأة، دون أطفال إلا أقرباء العروس، التي تعبت من الوقوف وهي تستقبل المهنئات. فجأة مال كعبها وسقطت على مؤخرتها، أمام ذهول وضحك النساء. تأثر كاحلها، وبقيت دون حذائها. أسرعت الصحفية تدوّن هذا الحدث في التلفون: "سقوط العروس في صالة عرس حي السعادة وأُصيب كاحلها إصابة بالغة".

أقبلت سيارة تحمل ما تنتظره الكثير من النسوة: ستمائة وجبة غذائية "بروست" فاحت رائحتها في أرجاء الصالة. تلك الرائحة جعلت سميرة المتبتلة تؤجّل مغادرة الصالة هي وصديقتها مريم. وُزِّعت خمسمائة وجبة، وتُرِك الباقي لما لم يكن في الحُسبان... كُنّ يمرحن إلا العرافة، كانت غاضبة وهي تشاهد مجموعة من النساء يتحلقن في دائرة صغيرة. تبادر إلى ذهنها أن امرأة تنافسها. اتجهت نحوها فتحول غضبها إلى شفقة

وأسف، حين وجدتها تبيع ثيابًا نسائية داخلية. بقيت تتأمل ما تبيعه تلك الفتاة الجميلة. كانت ذات الثديين الكبيرين تبحث عن حمّالة صدر كبيرة، رقم ٦٠. ضحكت النسوة حين ردت عليها البائعة بأن هذا طلب خاص من عند الخياط، وليس لديها أكبر من الرقم ٥٠.

أسرع "إقبال" إلى هناك، وسرعان ما عرف سبب الضحك، والبائعة تقول لذات الثديين:

- ما رأيك لو تجربين صدرية رقم ٥٠؟! سأساعدك في لبسها!

وراحت تقنعها. أخذت ذات الثديين الصدرية إلى الحمام، وتبعها "إقبال"، وراح ينظر إليها كالذئب وهي تخلع صدريتها الأولى. حدث نفسه: "مشهد مُغرٍ! سأفاجئهم بهذا المشهد..." وراح يقول للفتاة بصوته المبحوح: "ما شاء الله، سبحان الله يا أختي!"، ومد يده يساعدها في ارتداء الصدرية، فتمزق طرف منها. دار حول عريها يحاول مساعدتها في ارتدائها. أعادت المرأة الصدرية إلى البائعة، لكن "إقبال" حصل على ما يريده من مشهد، فسمع وسواسًا: "إنك رائع، رائع! تسبقني أحيانًا إلى الفكرة الرائعة".

❋ ❋ ❋

إنهم يحاصرون الفرح

بينما كانت العروس "نهلة" تزهو في ليلة فرحها الممزوج بالخوف من المجهول، كان العريس "مجيب المِقدام" في المكان الآخر من العرس، واقفا وهو في غاية السعادة، يستقبل المهنئين، بهيئته التقليدية، على كتفه زينة العرس"السيف الذهبي"، ويتحزم بحزام محشو بالرصاص، إضافة إلى "الجنبية". أما البندقية فوضعها بجانبه. يبدو كـ (رامبو) في الأدغال... جلس وهو يتصبب عرقًا، لكنه لم يسترِح في جلسته؛ لازدحام أصدقائه المقرّبين المتنافسين على الجلوس بجواره على كرسي العرس، يستمعون إلى صوت الفنان وهو يشدو بأغنية:

خايفْ عليكْ يا صغيرْ تسبحْ في بحر الهوى

ذا بحر ما لُهْ قرارْ الموج فيه عسيرْ

يكوي قلوب البشر وكم قلب اكتوى

هذا يشُلّ الكبيرْ، وأنت عادكْ صغيرْ!

بدأ العريس بمضغ القات، وهو غير معتاد على مضغه. أوصى صديقيه: ثامر ومحمد، بأن يطلقا المفرقعات في الجو، وأن يستمرا في إطلاقها من لحظة خروجه من صالة النساء حتى دخوله فندق "بيت نوّارة" في "الحي السياسي"... كانا يحسدانه على مصاهرة رجل من ذوي المعالي، وعلى قضائه شهر العسل في إسبانيا. في الوقت نفسه، كانت العروس في قلق منذ أن دخلت الصالة، ولا يبدو عليها الفرح في ليلة فرحها، ولم تبتسم إلا

حين سمعت الأطفال يلهون حولها، يتحدثون عن المرأة ذات الثديين الكبيرين. قال أحدهم يحدث رفاقه:

- لا، مُش بالون واحد، هناك اثنان في صدرها.

وحلف إنهما بالونتان كبيرتان؛ لكن أحدهم كان يعتقد أنها اشترتهما من السوق... ثم راحوا يلعبون لعبة الحرب، كُلٌّ بيده مسدس لعبة. يتخفون خلف الأعمدة والبعض خلف النساء. كل يحاول أن يصيب الآخر.

***

الخامسة مساءً:

بدأت "الساعة السُليمانة" عند متعاطي القات من الرجال في الصالة. يفكرون بما لم يفكروا به في الأوقات الأخرى.. أكثرهم يتحدثون عن الحرب... وفي مكان آخر من الصالة أخذ أحدهم يتحدث عن همومه الشخصية مع صديقه الجالس بجواره، وهو ينفث سيجارته بعصبية... والبعض يستذكر أحزانه فيبكي بعد أن مضغ القات "الحرامي"...

أما العريس وأصدقاؤه فكانوا يتحدثون عن الاختلافات في مجلس التعاون الخليجي. تحدثوا أيضًا عن دخول الحوثيين صنعاء في ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م. وتحدث العريس عن الحرب في سوريا، إلى أن وقف يُسلّم على رجل حضر متأخرًا من صالة عزاء في شاب سقط شهيدًا في محافظة "الضالع". أخاف العريس شخص كان يقول:

- تُرى لماذا المدعوون مزدحمون هناك عند بوابة الخروج؟!

- هروبًا من دخان السجائر.
- لا، بل الخوف جعلهم يجلسون هناك؛ ليهبوا خارجين إذا قُصفت الصالة، كما قُصفت الصالة الكبرى قبل أيام. البعض قفز من النوافذ، وبذل المسعفون جهدًا وأمانة في المحافظة على المقتنيات الثمينة لضحايا مسؤولي الدولة والجرحى، وإخفائها حتى عن أصحابها، وكان لهم شرف السبق في إسعاف الجرحى، ولم يسمحوا للرعاع بالمساعدة.

ماذا لو أن أحد عملاء التحالف وضع شريحة بجوار ذلك القائد، ترشد الصاروخ على موقعه (وأشار إليه)، أو ذاك الذي يجلس وبجواره خمسة عساكر، أو ذلك المطلوب من قِبل دول التحالف وخرج من الصالة؟! يا الله سترك!

تدخّل العريس بخوف قائلًا:

- حرام عليك يا ثامر، لا تفسد عرسي! يا رجل قُل غير هذا!

وفي الوقت نفسه خرج اثنان من المدعوين من صالة العرس، فزُرع الخوف في قلبه، وتمنى أن يذهب إلى صالة عرس النساء، ليبقى بقرب عروسه. وبينما المدعوون يتحدثون عمّا يجري في البلاد من قتال حول كرسي السُّلطة، كان بعض الشباب يرقصون على أنغام أغنية جميلة:

أمير القلب خلّاني على درب الهوى سائر
وخلّاني كما الريشة أرفرف في الهوى طائر

كان العريس ينتظر وقت الغروب بلهفة وشوق؛ ليعود إلى بيته، ليتخلى عن

زينته القتالية التي أثقلت كاهله، ويرتدي بذلته العصرية، ليذهب إلى عروسته في صالة النساء. كذلك بدأ القِلة من المدعوين ينهضون من أماكنهم إلى الحمامات؛ ليتوضؤوا لصلاة المغرب. أما السواد الأعظم فيجمع المغرب مع العشاء، بموجب فتوى تجيز هذا الجمع ما دام العابد في حضرة غصن القات المُبجّل!

***

السادسة والنصف مساء:

استعد اليعسوب لترك الصالة، والفرح يكاد يطير به إلى نحلته "نهلة"، حيث النساء يحتفلن بها. وكغيره، لم يكن يدري بما حبلتْ به المدينة. قام من مكانه واتجه إلى باب الخروج. سمع أصوات رصاص قوية، غير تلك المألوفة في الأعراس. ظنها طلقات ضد طائرة مقاتلة تُحلّق في سماء المدينة! أسرع خطاه وقام المدعوون فزعين قومة رجل واحد، تاركين ما بقي من قاتهم وسجائرهم وأغطية رؤوسهم.. تدافعوا إلى بوابة الخروج حافين! هبّوا من أماكنهم، ومن الحمامات، يهرولون! البعض لم يمسح مؤخرته بعد، لا يدري أين طريق النجاة! حاول البعض القفز من النوافذ.. لم يعد أحد يهتم إلا بنفسه، وكأنه يوم الحشر!

وصل العريس إلى الباب الرئيسي للصالة قبل الكُل، ونبضه يتصاعد فزعا! شاهد بجوار الصالة طقمًا عسكريًا وعدة جنود من الحرس الجمهوري. منعوه من الخروج في تلك الظروف. ذُهل العريس فسأل:

- ماذا تقولون؟! كيف لا أخرج؟!
- حالة طوارئ في المدينة، ممنوع التجوال!

- مُش معقول! ضيوفي في الصالة!

وقف المدعوون خلف العريس. سمعوا طلقات رعدية في مكان قريب، فصاحوا في الجنود:

- نريد العودة إلى بيوتنا، يمكن أن تُقصف هذه الصالة!

أكد لهم الجنود أن الصالة ليست هدفًا للقصف، وعودتهم إلى منازلهم فيها خطورة في الوقت الحاضر؛ فالجنود منتشرون في كل شوارع هذا الحي والأحياء المجاورة، وسيسمحون لهم بالخروج حين يهدأ القتال ويلقي أنصار الله السلاح، وما هي إلا ساعات ويعودون إلى منازلهم...

عاد المدعوون إلى الصالة؛ إلا العريس، فراح يحاول مع العسكر، وهو يفكر أن يذهب إلى صالة "حي السعادة" مباشرة! ركب سيارته المُعدّة سلفًا وهي تزهو بزينتها في حوش الصالة، ورفضت نخوته وشجاعته أمر الجُند، وقال لصديقه ثامر:

- قُد السيارة، لا تسمع لهم، حروبنا لا تنتهي!

انطلق الاثنان بالسيارة إلى شارع مجاور. بضع دقائق وعادا، وقد سلبه الجُند بندقيته وأجبروه على العودة ليبقى في الصالة. دخل منكسًا رأسه، يحمل سيف العرس على كتفه، والمدعوون في فزع يتساءلون:

- هل بدأت الحرب بين شريكَي الحكم؟! الكعكة ستكفي البلاد كلها! لماذا يتقاتلون؟!
- هكذا هي الشراكة في بلادنا، حتى بين الإخوة لا تنجح!

أخبره أحد المدعوين، وهو يُبدي غضبه وقلقه، أن الحرب ستهدأ، وسيذهب الجميع معه إلى صالة عرس النساء لإحضار نسائهم من هناك. أطرق برأسه وهو يفكر بعروسه: "هل عادت من عند الكوافيرة أم لا؟!"، ثم صاح بعصبية:

- لا يمكن أن يحاصرونا هنا! هذا جنون! كيف يحاصرون أربعمائة شخص هنا؟! مستحيل!

بقي "مجيب المِقدام" يفكر: هل هُنّ محاصرات أيضًا؟! حاول صديقه ناجي أن يكتم ضحكته، وقال للعريس ضاحكًا:

- يا "مجيب المِقدام"، أظن مهمتنا في إطلاق المفرقعات انتهت؛ فالمدينة كلها تحتفل الآن بعرسك بالذخيرة الحية! أظنك محظوظًا يا صديقي! وعمّك أحد المشاركين فيها!

غضب "مجيب المِقدام"؛ لأن صديقه لم يقدّر قلقه وخوفه. ذلك الخوف الذي سيطر أيضًا على صالة عرس النساء، بعد أن انطلقت زخات رصاص من طقم عسكري مرابط في الشارع بالقرب منهن! حينها هبّت الفضوليات نحو النوافذ، يستكشفن الأمر، فشاهدن جنودًا خلف متاريسهم يوجّهون بنادقهم نحو الجهة المقابلة من الشارع. قصيرات القامة منهن كُن يتلهفن لمشاهدة الجُند، فأسرعن يرصصن عدة كنبات ومساند فوق بعضها، بينما الكثيرات منهن دفعهن الخوف للتخبط في الصالة، والتزاحم على البقاء بجوار أعمدة المبنى.

لم تتوقع العروس أن المواجهات المسلحة ستمتد إلى أمام الصالة. دفعها الرعب لأن تقوم من على عرش ليلة فرحها بخفة، وتحتمي خلف

كرسي العرس. زادت كثافة الطلقات، وأخذت النسوة اللائي يشاهدن ما يجري في الشارع يهتفن: "حرب، حرب!". سقطت امرأة كانت تقف على إحدى الكنبات، ووقعت على امرأتين، وراحت تشكو من ألم، بينما البعض يضحكن حين ارتفعت رجلاها إلى الأعلى، ليتضح أنها بدون سروال، وأخذت المرأة التي سقطت عليها تلعنها؛ لأنها أفسدت تسريحة شعرها.

هبَّت المدعوات وزخّات الرصاص تزداد بكثافة، كُلٌّ تبحث عن عباءتها ولثامها، والخوف يفقدها الصواب في ما تفعله. بعضهن نسيت حقائب زينتها، نرجيلتها... وفي لحظات تحول النمل المتعدد الألوان إلى نمل أسود، وكُلٌّ تنادي قريبتها: يا صفية، ماجدة، سرووور، يا حفصة، رجاااااااء... أين أنت؟! بسرعة، سنخرج، الحرب قامت، انتهت لُعبة علي صالح...

البعض كُن يشتمن شيوخ الوساطة، الذين قالوا إنهم هدّؤوا الوضع المتوتر بين الطرفين، الذي اندلع أمس الخميس ليلًا في "الحي السياسي" حيث القصور الرئاسية.

تدافعت النساء نحو بوابة الخروج، والحرب تكشر عن أنيابها في وجوههن. كُلّهن يردن استعادة تلفوناتهن من الشرطية، فتدوس التي في الخلف على طرف عباءة التي أمامها وهي تحاول أن تتقدم للأمام، فترتدّ إلى الخلف تشتم وتلعن! تمزقت بعض العباءات الطويلة... أحيانًا كُن يقعن على الأرض، وبعضهن تلعن موضة تلك العباءات التي تكنس الشوارع خلفها.

كان مشهد تدافعهن وسقوط البعض مضحكًا! كن كجسر من النمل يعبر بعضه فوق بعض! حملن أحذيتهن بأيديهن... ارتبكت الشرطية أمام النمل الأسود المضطرب! حوالى ثلاثمائة امرأة يتزاحمن أمامها، كُلٌّ تريد تلفونها! لم يسمعنها وهي تناديهن ليقفن في طابور! كن يتناقلن الخوف بنظرات تبحث عن طريق للنجاة، وعضلات الوجوه تنكمش مع كُل زخّة رصاص تُسمع في الخارج!

***

لململمت زينب الصومالية بضاعتها بهدوء وسكينة من البوابة كأن شيئًا لم يكن. دخلت الصالة لتسمع الصياح والعويل. نساء يتصادمن ويقعن على الأرض! أخرى تبحث عن حاجياتها... قالت لإحداهن:

- ما هذا؟! ألا تعرفن الحرب؟! لمَ الخوف والحروب تأكلكم من زمان أكثر منا؟!

خيّم الرعب على الفرقة الموسيقية، وهي تنتظر متى سيخف تدافع النساء أمام البوابة ليلُذن بالخروج. كتلة بشرية سوداء، تشوبها رؤوس حاسرة، وشعرها بكل ألوان الطيف، والأجساد تلتصق ببعضها... وقفن في طابور، لكن كانت هناك نساء يرين أنفسهن فوق النظام وفوق الأخريات، وأن على الشرطية صباح أن تُعاملهن معاملة خاصة! شتمتهن امرأة غاضبة، ورفعت عليهن حذاءها، الذي كان في يدها، فتدخل العقلاء منهن لفض النزاع.

بدأت الشرطية بإعادة التلفونات؛ لكن البعض فقدت الكرت الخاص بإيداع التلفون، والشرطية تلح على تسليم الكرت. خيم الرعب

أكثر بعد تواصل البعض مع أهاليهن ونصيحتهم لهن بالبقاء في الصالة، وعدم مغادرتها بتاتًا؛ فالحرب مشتعلة في كثير من الأحياء وفي مطار المدينة، واحتمال أن تدخل قبائل طوق المدينة، كما حدث عام ١٩٤٨م. فُرض حظر التجوال، لترقص الشياطين رقصة الحرب في شوارع خالية من الناس. صاحت إحداهن:

- يا نسوااااان! لا تتزاحمن في البوابة! في الشارع حرب! ممنوع الخروووووج.

هدأ صخب الصالة، وخف تدافع الخوف في البوابة على استرداد الهواتف. الكثير منهن عُدن إلى أماكنهن في حالة خوف وقلق. ذهب البعض إلى حمامات الصالة، وبعضهن تبوّلن في ملابسهن خوفًا.

وجدت الفرقة الموسيقية طريقًا للخروج، فهرع أعضاؤها الأربعة نحو الباب المُطل على الشارع، يتبعهم حارس الصالة، والميكروفون في يده لم يغلقه. سمعت النسوة أحد الجنود يهتف بهم غاضبًا:

- عودوا إلى الداخل، لسلامتكم، ممنوع التجول الآن! اليوم يوم جِن، هيّا عودوا! مليشيات علي عفّاش(٥) تمردت على الدولة!

كانت الفضوليات يشاهدن الموقف من النوافذ، وأعضاء الفرقة يعرفون أن عيونًا كحيلة ترقبهم! عصروا شواربهم، ودفعتهم الشجاعة للخروج رغم التحذير. ركبوا السيارة وانطلقوا بسرعة في اتجاه رأوه آمنًا. دقيقة واحدة، وسُمع دوي انفجار كبير في ذلك الاتجاه! إحداهن في النافذة

(٥) لقب الرئيس الأسبق علي عبد الله صالح، ظهر بعد ثورة ١١ فبراير ٢٠١١.

صرخت بحذر: "ماتوا! ماتوا! قُتِلوا! يا الله استر!..."، فأخافت الأخريات، وخيم الرعب على الصالة، وانقطع أمل الخروج!

ازداد الهلع مع توالي الانفجارات المدوية. هذه المرة ليست بعيدة عن الصالة. سارت كُلٌّ منهن تبحث عن قريبتها أو صديقتها بخوف وتوتر ليجلسن معًا. أصيب البعض بإسهال ومغص مفاجئ؛ فأسرعن إلى حمامات الصالة وتزاحمن على الأبواب. بمجرد أن يُفتح الباب قليلًا تدخل امرأة قبل أن تخرج التي في الداخل، أحيانًا لم تغلق الباب، فتدخل امرأة أخرى بجانبها، بل وربما دخلت ثلاث معًا حمامًا واحدًا!

كان "إقبال" في البداية مضطربًا وحزينًا، يرى أن مهمته لن تُكلل بالنجاح؛ لكن سرعان ما تحول حزنه إلى سعادة؛ حيث راح يفكر بعد أن يخرج كم سيربح من تصوير الخوف في الوجوه، الذي لا يمكن أن يجيده أفضل ممثلي هوليوود! وأطلق على ذلك المشهد عنوان "الجمال المرعوب". اعتبر نفسه صحفيًا في قلب معركة أبطالها نساء لا غير. وما أسعده هو ازدحام ذلك الحُسن على حمامات الصالة، تزهر البسمة في عينيه وهو يرى الجمال الخائف يزداد جمالًا أمام عدسته المثبتة في البروش على رأسه.

في بادئ الأمر شكّت النسوة أن وجبة البروست التي تناولنها فاسدة؛ لسوء حفظ الدجاج إثر انقطاع التيار الكهربائي في البلاد منذ سنوات. تهافُت النسوة على الحمام أثّر سلبًا على العروس، فانتعلت حذاء أمها ونزعت ذيل الفستان ضجرًا، وهرولت إلى الحمام، بصحبة أختها فاطمة؛ لكنها لم تستطع دخول الحمام؛ فذلك الطوق الدائري وسط

الفستان لم يتسع له باب الحمام. خلعت فستانها وبقيت بثوب داخلي مُغرٍ. اتسعت عينا "إقبال" كذئب يترصد غزالًا. حدّث نفسه بفرح: "شكرًا لك يا حارث! شكرًا! سيكون فيلمًا مغريًا لذوات العباءات السوداء.." يشاهد النسوة يتخبطن كنملٍ يهرب من وقع أقدام فيل يطأ قريته. كان ينتقل هنا وهناك لتصوير مشاهد رعب الوجوه. يقف قليلًا أمام الحسن المرعوب، وهو يبدي خوفه، يتحدث بصوته الخائف المبحوح كنساء يندبن أنفسهن من مصيبة حلت بهن: "الله يستر يا أخواتي! مُش معقول! اللهُ أكبر عليهم! يحاصروننا هنا!...". اصطدم بامرأة واعتذر منها بصوتٍ أجش، ثم أسرع إلى الحمام يعيد ترتيب وضع حمالة الثديين المزيفين في صدره. شعر هناك بالبهجة وهو يشاهد نساءً في وضع مغرٍ. يفكر: "أظننا سنبيت الليلة هنا! تُرى من ستنام إلى جواري؟! نعجة أم غزال؟! آه! لو تكون نعجة أفضل!"، وأخذ يراقب وجهه وثيابه.

خرج من الحمام ليشاهد الخوف والهلع في عيونهن. قال لنفسه: "لتطُلْ حفلتك يا حارث في المدينة!" سمع وسوسة الحارث: "سأبحث لك عن نعجة تسامرها الليلة! سأجعلك أنتَ العريس يا جنديَّ المطيع! ستكون أحد قادة البلاد يومًا". سار وهو يرى نفسه ذئبًا حنونًا بين قطيع، يبحث عن نعجة شاردة.

كانت هناك أسئلة كثيرة تتداولها النسوة، وهرج ومرج يسود الصالة. أغلبهن بقين واقفات متوترات، وحقائبهن في أيديهن، وأكياس فيها أشياؤهن الخاصة: عصير، بروست، قنينة ماء، علب الماكياج، باروكة شعر سقطت أثناء التدافع عند البوابة... أثناء ذلك الارتباك صاحت امرأة بدينة كأنّ الشيطان تلبّسها، مما أرعب الأخريات: "حقّي الحزام الذهب

ضااااع!". أخذت اللواتي يُزيّن خصورهن بأحزمة الذهب أو الفضة يتأكدن من ممتلكاتهن، وإذا بامرأة أخرى قصيرة القامة مرتبكة تصيح: "وأنا حزامي سُرق!". راحت المرأة السمينة تندب حظها: "تسعة ملايين ريال ضاعت يا خلق الله! والله لأفتش كل النساء!". تبيّن في الأخير أن هناك سبعة أحزمة ذهب، وثلاثة من الفضة فُقدت أثناء تدافع النسوة عند باب الصالة.

كانت رحى الحرب تدور في الخارج. واللواتي فقدن الذهب يفتشن كل أرجاء الصالة وحقائب المدعوات. شاركت الشرطية في تفتيش النسوة... الكثير منهن عرضن أنفسهن للتفتيش، وأخريات كن يتذمرن. النساء المنكوبات كن يفتشن والأمل يتلاشى فيهن؛ كيف يجدن الذهب الضائع في زمن الحرب والفقر؟! بكت إحداهن، وسال دمعها ممزوجًا بالكحل، وسقط رمش عينها دون أن تشعر. إحداهن كانت تضرب صدرها وتبكي وتلعن نفسها، وكذلك جارتها. انقطع التيار الكهربائي في الصالة، ولم تعد إلا إضاءات التلفونات تفيد للتفتيش عن أحزمة الذهب. اجتمعت اللواتي فقدن أحزمة الذهب معًا، وحّدتهن المصيبة، كُلٌّ تحدث الأخرى كم خسرت من المال وكيف يجدن ذهبهن! إحداهن قالت بيأس: "الحرب اللعينة أفقرت الكثير من الناس! معظم المدعوات بعن ما يمتلكنه من ذهب لينفقن على بيوتهن، والآن سيجدنها فرصة للتعويض!". أخرى قالت بغضب: "سنفتش كل نساء الصالة تفتيشًا ذاتيًا!". وإحداهن قالت: "عوضي على الله!"...

دوّنت نبيلة الصحفية في التلفون "فقدان عشرين كيلوجرامًا من الذهب لذوي القِطط السمان، في عرس الصالة المحاصرة، حُوصرت فيها ألف وخمسمائة مدعوة". وبعثت بالرسالة النصية.

تجمّعن في الصالة في مجموعات، كُلٌّ تبحث عن قريبة لها أو صديقة. اللواتي يحملن موقفًا موحّدًا من الحرب ينزحن في مكان واحد. اللواتي يتحدثن عن خيانة الرئيس الأسبق تجمعن في شمال الصالة، واللواتي يقفن في صف جماعة عبد ربُه تجمّعن في جنوب الصالة، واللواتي يدعمن موقف الرئيس الأسبق ويصفنه بالزعيم انزحن معًا في وسط الصالة...

قالت إحداهن:

- إنه ثعلب العصر، ماكر، داهية... كان ذلك دهاءً منه ليفاجئ خصومه يوم أن صرّح أمام أنصاره، الذين هبّوا من كل حدب وصوب في ميدان السبعين يوم الاحتفال بمناسبة تأسيس المؤتمر ٢٤ أغسطس ٢٠١٧م، أظهر أنه لم يعد ذا سطوة كما كان عليه سابقًا. يا له مِن ثعلب!

تخيّلت النسوة أن قبائل الطوق تتقدم نحو المدينة لتلتهمها، يركبون العربات والجرافات، ومَنهن ترثي أنصار الله، وهي تراهم يتوارون في الأزقة، يخفون أسلحتهم ويلبسون ثيابهم المدنية، يدخلون منازلهم ويخفون شعار الصرخة... وبينما كانت الحرب المسعورة تدور خارج الصالة، كانت هناك حرب أخرى نفسية تدور داخلها.

أخذت زينب الصومالية مكانًا لها بجوار امرأة تشبهها. استلقت بجوارها وراحت تتحدث بشجاعة عن الحرب في الصومال. قالت:

- يوم أن ولدتُ في مقديشو كانت الحرب تدور بجوار بيتنا، ماتت خالتي وهي تقاتل. احمدن الله إنكن في الصالة، هنا أمان، ما في مشكلة، ليش تخافين؟! عندنا المرة[٦] ما تخاف مِن الحرب...

تحدثت عن حياتها في الصومال، بينما المرأة بجانبها ترتجف من الداخل، لا تعي ما تقوله زينب، وأصوات الرصاص والقنابل تدوي في الخارِج، وهي ما زالت تثرثر: تزوجت ضابطًا لأسبوع، ثم تزوجت صاحبه.. ودخلت في ذكرى رومانسية مع الزوجِ الثاني... ثم استسلمتْ للنوم على أصوات دوي الانفجارات والرصاص.

تكوّرت العروس بجوار أمها كعصفور يرتجف من الخوف، وهي تتحدث بعينين دامعتين: لا بد لمجيب المِقدام أن يحضر! لماذا لا يحضر أبي؟! لم أصدّق الضابط وأنا آتية من عند الكوافير حين استوقفنا طقم عسكري، ونصحنا بالتوجه نحو البيت وليس نحو الصالة! سقط رمش إحدى عينيها الصناعي دون أن تدرك، وهي تبكي. اتصلت بمجيب فأخبرها عن مغامرته التي قام بها... وأنه لولا الجبناء الذين أعادوه إلى الصالة بالقوة لكان أتى إليها دون خوف من الرصاص، وأقسم بالله أنه غامَر، ولو لديه مال لدفعه لسواق مركبة مدرعة كان سيأتي لأخذها إلى البيت. أمّا هي فأخبرته أن جدها الشيخ لديه مركبة مصفحة في القرية وأسلحة كثيرة، إذا لم تهدأ الحرب فسيتدخل ليخرجهم من الصالة. تعمد مجيب المِقدام أن يُسمعها طلقات الرصاص من خلال تلفونه، بتوجيه الميكروفون نحو مصدر صوت الرصاص، وقال لها بحماس: يا نهلة، غير

---

(٦) المرأة.

معقول أن أتركك تعانين في ليلة عرسك، ستجدينني عندك في أقرب وقت، بمجرد أن يخف الرصاص. مسدسي جاهز.. ردت بخوف: مُش معقول تقاتل السُلطة على شاني يا مجيب المِقدام! أنتَ لست ابن شيخ، أنا أعرفك منذ أن كنتَ في الجامعة طيبًا وهادئًا، ولهذا أحببتك! لا أريدك أن تموت في ليلة عرسك! لا تأتِ حتى تهدأ المعركة! سأنام في حضن أمي هذه الليلة.. راح مجيب المِقدام يقبّل سماعة التلفون، وهي بدورها تفعل ذلك خِلسة. كانت لحظات رومانسية يتخللها برق الشياطين.

***

تحدثت مجموعة وسط الصالة عن حنكة الزعيم. قالت إحداهن بفرح:

- أخيرًا نفّذ خطته! سيخرجهم من العاصمة، ويعيدهم إلى كهوف الجبال! كان يجب أن يعملها من زمان، منذ أن أوقفوا صرف رواتب قادته وجنوده. سيكون له الآن نصيب الأسد من الكعكة، لم تستطع "جماعة هادي" أن تحقق هدفها بعد ثلاث سنوات من الحرب. نعم، إنه الزعيم الراقص على رؤوس الثعابين!

ورحن يشدن بحنكته ودهائه:

- ثعلب العصر، يستحق زعامة العرب، خيل عربي أصيل كشعاره. سيُزف إلى عرشه اليوم أو بعد غد.

كانت إحداهن ستطلق زغرودة، فامتدت يد بخفة وسدت فمها، وضحكن خفية. كان الظلام يسود الصالة واختلط الخوف والضحك

والحزن معًا، والعفاريت ترقص خارج أبواب الصالة، تقترب من نوافذها لتشاهد نملًا أسود ضخمًا يتجمع في مجموعات! من لم تجد المجموعة التي على هواها، تبحث عن أخرى، فكان كل طير على شاكلته يقع، ومن لا يعنيها شيء من الأمر تجلس حيث تشاء صامتة، وتوافق على كُل ما يُقال.

جلس "إقبال" جنوب الصالة، بعيون ذئب يترقب غزالًا أو نعجة تقترب منه. وإذا بفتاة في الخامسة والعشرين من العمر تتقدم نحوه لتجلس بجواره وتقول له: هذا جنون! معقول ننام الليلة هنا؟! ثم عرّفت بنفسها: "وديعة". حدث نفسه: لقد صدقت يا حارث، وصدقَ وعدك! إنها امرأة لينة العريكة.. رآها في الحمام كما يشتهي، وأحس بورود تنهمر عليه برائحتها الزكية، ولم يعد يشم عرف البارود الذي حول الصالة، ولا يسمع أصوات المردة ترقص رقصة الموت في الخارج!

بينما كان الأمل يخيّم وسط الصالة، كان الحزن يخيم في الجهة الشمالية منها. يعتقدن أن الشمس لن تشرق إلا وقد انتهت سُلطة أنصار الله، وقبائل الطوق تطوق المدينة كما دخلها أنصار الله أنفسهم بالسلاح قبل أربع سنوات، من كل مداخل المدينة، للمطالبة بإلغاء رفع سعر الوقود. كان تفكير النسوة يأخذهن بعيدًا عن الحرب إلى أن انفجرت قذيفة مدوية داخل حوش الصالة. صرخن جميعًا، لعنّ الحرب، وارتمت وديعة في حضن إقبال، الذي راح يربّت بيديه على ظهرها ويمسح على فريسته بحنان. أما زينب الصومالية فكانت مستلقية على جنبها، تحاول أن تنام، فهي ترى الحرب لعبة بين الجنود، ولم تزعجها إلا قذيفة مدوية. حاولت الشرطية تهدئة النسوة، وراحت تتحسس طريقًا لها في الصالة بضوء التلفون، إلى

أن وصلت إلى كرسي العروس واعتلته. هتفت بصوت عال: يا نسوان! سيجدون حلًا لخروجنا، سيعلمون أننا هنا محاصرات، سيعملون هُدنة لخروجنا على الأقل صباحًا، لا تخفن!

كانت تتحدث وهي تسمع طقمًا عسكريًا يقف في الشارع قريبًا من نافذة الصالة، يطلق القذائف. وضعت كفيها على أذنيها كبقية النسوة. البعض كن يبكين بصمت ويمسحن دموعهن المختلطة بمساحيق التجميل. أما ماكياج العروس- ماركة شِلد للأقنعة- لم يتغير أمام دموعها، ظل صامدًا. لكن رِمْشَي العينين سقطا.

دوّنت الصحفية: المدعوات في صالة العرس المحاصر يقعدن في الظلام، ينقسمن شيعًا وأحزابًا.. وبعثت الرسالة وهي تحدث نفسها كم ستنال من مال عن سبقها الصحفي الحصري من قلب الحدث!

بقي إقبال بقرب وديعة، خائفًا من "إقبال الصغير" المتوتر، أن يفك وثاقه من حول فخذه، فهو لم يتأكد من وداعة وديعة بعد.

***

الطفل "عامر"، ابن أخت العروس، البالغ من العمر خمس سنوات، ولد ذكي، وسيم، شعره يتدلى على كتفيه. قال:

- لا تفتجعنش[٧]، هذي حرب، حرب.... بعض النسوة في بداية العرس كن يطبعن شفاههن على خده، حتى صار خده بألوان الطيف. بعضهن كنّ يطلبن منه أن يقبلهن، فيفعل مع

(٧) لا تخفن.

الحسناوات فقط. حين انفجر صاروخ في جبل "عطّان" اهتز المكان، وأزَّت النوافذ، أخبرهن عامر بشجاعة: هذا صاروخ، لا تخافينش! وراح يُحرّك نصفه الأسفل أثناء ما كانت إحدى المدرعات تطلق زخّات رصاص، مما أضحك النسوة المثقلات بالضجر من حوله.

لم يخفْ عامر، هو وبعض الأطفال، مما يجري خارج الصالة من خراب ودمار وسُعار؛ فمنذ خروجهم إلى الدنيا وهم يسمعون أصوات الرصاص والقذائف.

حصلت أبواق الإعلام على وجبتها الشهية. كُلٌّ تطبّل لمَن تقف في صفه. النساء المتواجدات في شمال الصالة يصغين من الإنترنت لأخبار قناة "المسيرة"، واللواتي في سط الصالة يصغين لقناة "اليمن اليوم"، واللواتي تجمعن في جنوب الصالة استمعن إلى قناة "الشرعية"... الكل يتحدث عن انقلاب الرئيس الأسبق على شركائه الحوثيين، والحرب الدائرة بينهم. وأجّج الشيطان نار حفلته في المدينة، يصب الزيت على النار لتلتهم المدينة كلها. وهناك مخالب شرهة تترصد المنتصر لتنقض عليه، بينما مراكب الذات العائدة إلى الوراء آلاف السنين تمخر طوفان الأرواح، في ظل عالم يدفع عجلة التاريخ إلى الأمام بسرعة الصاروخ، ينفث دخانه ليحول المتصارعين حول العروش إلى ديدان عمياء تحفر في الأرض.

***

الثامنة والنصف ليلًا:

كان وميض انفجار القذائف يتخلل ظلام الصالة، وهناك طنين النحل الخائف من غزو دبابير شرسة، البعض تلعن، والبعض الآخر يسألن الله السلامة... تخيّل البعض أن الجن والمردة يراقصون الجنود على جثث بعضهم، ويعتلون أسطح الديار، وأولادهن في رعب بعيون جمدها الخوف. حدث لبعض النسوة أمر غريب، حيث رحن في النوم، مما أغاظ الأخريات، كيف ينام المرء أثناء رقص الشياطين؟! كانت طائرات التحالف العربي المناصرة لجماعة هادي تُحلّق في سماء المدينة، والنسوة اللواتي يتلذذن بتخويف الأخريات يخبرنهن من احتمال قصف الصالة، كصالة العزاء التي قصفوها بالخطأ في منطقة "سنبان".

وقفت "رشيدة"، وسط الصالة ووجهت بوقها المُخضّب بأحمر شفاه نحو الجهة الشمالية من الصالة، حيث يخيّم الأسى والحزن، وأخذت تتحدث بصوت عالٍ عن طرد أنصار الله من صنعاء، وإعادتهم إلى كهوف "مرّان"، وعن هزائمهم في حروب سابقة، أيام "الزعيم". كانت سامية تجلس إلى جوار "رشيدة"، قامت ترقص في الظلام وتغنّي، لم تكن تُرى إلا حين يتخلل الظلمة بريق انفجار الموت بجوار الصالة:

اتفرّج لك بلاشْ كيف يذبحوا الكباش

هذا هو الزعيم، زعيم والا بلاش!

كم لُه سنين يحكُم! قالوا: ما ينفعناش

حتى نسوا اسمه.. قالوا عليه: عفَّاش

ضحكت معظم النسوة، رغم القلق وما يسمعنه من أصوات مفزعة. ردت عليها امرأة من شمال الصالة، وراحت تشتم رشيدة وسامية، واتهمت الزعيم بالعمالة للأعداء، منذ أن كان يقود دفة الحكم في بحر الفساد، وأنه خان الوطن والشعب... وجرى السباب المخزي فيما بينهما. غنّت سامية مرة أخرى، وإذا بحذاء يهوي عليها، لا تدري من أين، ويخرسها! صاحت وهي تشكو من الألم: مَن هي الثافلة[٨] بنت الثافلة التي رجمتني؟! ثأقتلها لو رأيتها، بِنت ثوق! وجلست تئن وتذرف دموع الألم، والدم يسيل من فمها، ولولا ظلام الصالة لتطور الأمر إلى اشتباك بالأيدي والأظافر. لم يخرس ضجيج النسوة إلا دوي قذائف دبّابة تعبر بالقرب من الصالة وتهز نوافذها، مما أدى إلى سقوط بعض زجاج النوافذ. حينها اهتز غرور النسوة في وسط الصالة، وتكور الطفل عامر بجوار أمه كعصفور يفر من صقر جائع، ثم تنفس الصعداء وعاد يزعم أنه لم يخف: هي مجرد دبّابة! لديه الكثير من لُعبها الحربية في بيتهم.. يتخيّل أنه يركبها ويقتل بها الأعداء! كان يشكر أباه وهو يحضر له مزيدًا من لُعب الحرب لتصقل موهبته القتالية، وصار لديه في البيت معسكر من دُمى آلات حربية وجنود. أخبر النسوة أنه حين يكبر سيقتل العسكر، ويحصيهم عددًا، ولن يستبقي منهم أحدًا، ويسلب أموالهم غنيمة... كان يتنقل من مكان إلى مكان في الظلام، يجلس تارة في جهة مناصِرات أنصار الله، وتارة حيث مناصِرات الزعيم، وتارة حيث مناصرات "جماعة هادي"، يمرح مع الكل، وحين يسمع دوي انفجار بالقرب من الصالة، يجلس سريعًا خلف أي امرأة يكون بجوارها، ثم يعود ويزعم أنه لم يخف.

---

(٨) تنقلب السين والصاد ثاء بعد أن كسرت ثنايا سامية.

دونت الصحفية: سقوط أسنان امرأة نتيجة حذاء سياسي في صالة العرس المحاصرة، وأدى إلى اشتباك بالأيدي والأسنان والأظافر.. وبعثت رسالتها المتميزة، وأوصت الموقع أن يُظهر نساءً كُلٌّ تعضُّ الأخرى...

***

الساعة التاسعة ليلًا:

ازداد البرد في الصالة. والنسوة في ذهاب وإياب إلى الحمام، يستعنّ بأضواء التلفونات، يسرفن بمخزون الماء ولم يفكرن في المجهول الذي يديره الشيطان. حين تتوقف زخات الرصاص لفترة يتحدثن: الحمد لله، توقفت الحرب.. ثم يفاجأن بدوي انفجار قوي في مكان قريب، ويَعُدن إلى اليأس مجددًا! ويفكرن كيف سيرقدن الليلة في الصالة دون أغطية أو فرش كافية؟! الكثيرات فكرن أن عباءاتهن ستفي بالغرض، وإن قُصفت الصالة سيمُتن مستورات. هكذا كان البعض ينام من سكان صنعاء ليلًا، والبعض كان يحتفظ بكفنه في البيت، والمدينة تُقصف خلال السنوات الثلاث الماضية. اقترحت إحداهن أن يضممن الفرش بعضها إلى جوار بعض. قالت إحداهن: أيوة، كُل واحدة تدفئ الثانية.. فسرى الضحك في أرجاء الصالة. نساء كُثر فضلن النوم بجوار قريباتهن أو جاراتهن في الحارة، وقليل ممن تقابلن في الصالة بعد زمن طويل. كان إقبال يُهدئ من روع وديعة، وقد التصق بها أكثر مما ينبغي، و"إقبال الصغير" المشدود إلى فخذه يتوتر ويود الحرية.

اللواتي كُنّ في وسط الصالة وجنوبها، تحدثن عن أيام الصبا، وعن الدراسة، وحياتهن الشخصية... والمجموعة التي في الجهة الشمالية كن

يتحدثن عن العدوان، وعن أمريكا و"إسرائيل" وعملائهما، والفساد الذي كان سرطانًا ينخر جسد الوطن، وعن تضحيات الأهل خلال الحروب الست في صعدة ضد الدولة... كتبت إحداهن بأحمر الشفاه شعار "الصرخة" في أحد أعمدة الصالة على ضوء الهاتف، وفي مرآة الحمام. عند عودتها داست فخذ امرأة ترقد في جنوب الصالة، وراحت تتأسف وتعتذر بأنها لم ترها، وراحت تلعن أمريكا التي تسببت في انقطاع التيار الكهربائي منذ سنين، ثم اصطدمت بأحد أعمدة الصالة وراحت تلعن اليهود.

إحداهن في وسط الصالة قالت: الذين نزلوا الساحات يطالبون بإسقاط النظام هم السبب.. ردت عليها أخرى من جنوب الصالة: لا يا حبيبتي، مُش الثواار هُم السبب؛ النظام الأسبق لم يسمح لأحد أن ينجح بعده، ويريد أن يعيدنا إلى عهده، وجاء غيره يريد أن يعيدنا إلى عهد جَدّه.. سرت الضحكات في الصالة من حديثها، ثم أيَّدتها بعض النسوة. ارتفع صوت في شمال الصالة يقول: العدواان وأمريكا وإسرائيل هم السبب، دمروا بلادنا...، واختلطت الاتهامات بالشتائم، ولولا الظلمة لاشتبكت الأيدي الناعمة وتكسرت الأظافر الطويلة.

***

العاشرة ليلًا:

توقفت دبابة بجوار الصالة. أرادت امرأة فضولية أن تشاهد كيف تطلق حِمم الموت. دفعها فضولها لتتحسس طريقها في الظلمة، والنسوة يتذمرن من سقوطها عليهن وهي تتخطاهن. بعضهن يضحكن حين تقع

يدها على منطقة حساسة، والبعض يلعنّها... وهي تضع كفّيها على أذنيها رأت تلك الفضولية الدبابة، وبرق الموت ينطلق من فوهتها.

عادت كالفاقدة بصرها تتحسس طريقها، تتخطى أجساد النسوة حتى وصلت مرقدها، فلم تجد إلا حيزًا صغيرًا بين امرأتين. دست نفسها والتصقت بهما. أخبرت إحداهما بما شاهدت، وراحت تثرثر بصوت خفيض: أقول لِك الجنود بعد أن خرجوا من الدبابة دخلوا غرفة الحارس بجوار الدبابّة، أيش؟! يخافوا السرق يسرقوها؟! وبشكل طبيعي ضحكت اللواتي حواليها، ثم ضحكت أخريات بالقرب منهن دون معرفة السبب. البعض توجسن من أشياء منافية للأخلاق. وفعلًا كان يحدث هذا حين تستلقي امرأة لتنام على أحد جنبيها، وتضع يدها دون قصد على المنطقة الحساسة للتي بجوارها. إحداهن كانت مستلقية على ظهرها، قالت لامرأة أخرى وهي تضحك: مو[٩] تعملي يا أختي؟! قده مُغلّق بقفل من ثلاث سنين! الرجّال عنده سُكر. قدني أنا وهو خوات! امرأة بجوارها همست ضاحكة: يمكن حلمت أنها بجوار زوجها! عادها شابة يا أختي! الله يلعنهم، خلّونا ننام مثل الغنم، كل واحدة تدفئ الثانية!

في الوقت نفسه كانت سميرة تحدث صديقتها مريم المستلقية بجوارها، عرفتها بعد أن تزوّجت وانتقلت إلى المدينة قائلةً:

- أنا من قرية يفرُس قريبة من مدينة تعز، عُمري خمسة وثلاثون عامًا، أخذتُ الشهادة الثانوية ولم يأتني النصيب لأتزوج كأترابي اللواتي غدا لهن أطفالٌ. كنت أحزن على نفسي وأقضي معظم

(٩) ماذا؟

أوقاتي أفلح أرض والدي وأهتم بالمواشي. كنت أزور ضريح أحمد ابن علوان، أقف أمام قبره وأدعوه أن يطلب من الله ليبعث لي زوجًا حتى لو هو متزوج ولديه أولاد. كنت خائفة مما قيل لي بأن المرأة إذا لم تتزوج قبل عُمر الأربعين فلن تنجب أطفالًا. داومت أزور ضريح أحمد بن علوان، أبكي عند ضريحه وأقبّله، أقدّم له النذور، حتى ظهر لي في الحلم وقال لي: أمشي يا سميرة على طريق الهُدى وسيأتي لك الزوج الصالح.. ورحت أقرأ كتبه.... وجدت نفسي لم أعد راغبة بالزواج، أمضي جُلَّ وقتي في ذِكر الله.

بعد سنة حضر رجل ثري في الخمسين من العمر أسمر طويل، وقال بأنه طلّق زوجته ولديه سبعة أولاد وسيسكنني في شقة منفصلة عن أولاده. رفضت خطبته ولكن أمي أجبرتني على الزواج منه. وجدت زوجي لم يطلّق زوجته لكنني لم أغضب. كانت زوجته لا تنظر إليّ بعين الغيرة فهي أجمل مني. كنت أسمع أوامرها كأنني خدّامتها فهي كبيرة في السن. لكن عملي لم يعجبها ولا طهوي، فراحت تعلّمني الطبخ الذي لم نطبخ مثله في القرية. كنت أعمل في الأرض كبقرة تجر الساقية من الصباح حتى المساء. لم أغضب من كثرة أعمال البيت من كنس وطبخ، ليس هذا العمل بشيء أمام الفِلاحة تحت حر الشمس والريح دون أن أحصل على مقابل، حتى من إخوتي الذين لهم نصيب الأسد من ناتج المحصول.

هذه أول مرة أحضر عرسًا من بعد زواجي. أظن زوجي يندبُ حظّه الآن في داره ولن يستطيع المُخاطرة بالمجيء إلى هنا كالآخرين.

كانت مريم ستحدث سميرة عن زوجها المُدرس المسجون؛ لاتهامه بأنه عضوٌّ في حزب الإصلاح، لكن مريم توقّفت إثر سماع قذيفة مدوية سقطت بالقرب من الصالة.

العاشرة والنصف ليلًا:

سقطت قذيفة مدوية بالجوار، فانتصب فضول امرأة مرة أخرى وأجبرها أن تحبو، إلى أن بلغت نافذة الصالة. رأت الجند يسرعون إلى داخل دبابة، بملابسهم الداخلية وباشروا يقذفون حِمم الموت. رأت لهب تلك القذائف فصاحت: حريق! حريق! تعالي يا رانيا! تعالي يا نسرين! الله يلعنهم، دمروا البيت".

لم يعد إقبال قادرًا على الاحتمال، وهو ملتصق بوديعة. قام يتحسس طريقه في الظلمة نحو الحمام؛ ليزيل توتره هناك. تأخر في الحمام، وثمة نساء يستعجلنه في الخروج؛ لاسيما أولئك اللواتي تعاطين كثيرًا من القات، واللواتي يعانين من مرض السكري؛ لم يأخذن دواءهن المعتاد. حين فتح باب الحمام وجد امرأة كبيرة في السن تنتظر بجوار الباب. قالت له:

- الله يعينك يا بنتي! سمعتك تتألمين داخل الحمام! إن كان عندك بواسير عليك بالحُلبة والبامية والملوخية؛ البواسير مؤلمة!

كتم ضحكته، شاكرًا الحارث الذي شوّش على المرأة ما سمعته. عاد بصعوبة لينام في مكانه بجوار وديعة، متحاشيًا السقوط على امرأة أثناء عودته. وجد وديعة خائفة. قالت له: "ظننتكِ لن تعودي! والله إنني شعرت بالأمن وأنت تحضنيني!". دس نفسه في مكانه وقد ضاق كثيرًا.

غالبية النساء لم يستطعن النوم. أمّا الأطفال فقد غلبهم النوم بسكينته، إلا "عامر"، يسب العسكر الذين يوقظونه من النوم، ويتوعدهم بالخروج ليقتلهم! أمّا نهلة فكانت ترى أن "نجيب" سيأتي حسب الوعد، وأنه سيضحّي من أجل الحب، ومن غير المعقول أن تنام في الصالة في حضن أمها في ليلة انتظرتها منذ أن كانت تدرس معه في الجامعة، وقد حجزوا لهما جناحًا في "فندق نوارة"، بالقرب من الصالة... أخذت أمها تهدئ من روعها:

- هذه بلادنا يا بنتي! الحروب ما هي جديدة علينا، مكتوبة على كل جيل، ويمكن أن يعاني منها ابنك في المستقبل! نحن أولو بأس شديد بيننا يا بنتي!

دونت الصحفية في التلفون: النجدة! النجدة! النجدة! قذيفة دمرت باب الصالة المحاصرة، واستشهاد ثلاث نساء، والجريحات لم يُحصَ عددهن إلى الآن!

كانت زينب الصومالية قريبة من نهلة. قالت لها:

- أيش هذا يا عروسة! تبكي؟! في الصومال نتزوج والحرب تدور، ولو مات العريس نشوف بداله، ما في مشكلة! خلّيك مرة[١٠] شجاعة! أنتم قبائل، مثلنا؛ دائما حرب، ما في مشكلة! النوم في حضن الأم ما فيش أحسن منه يا عروسة!

***

(١٠) امرأة.

ما يحدث من قتال بجوار صالة النساء كان يدور مثله بجوار صالة الرجال. اعتلى القناصة أسطح المنازل المرتفعة عنوة رغمًا من أهلها الخائفين من دمار بيوتهم. في هذا الوقت من الليل كان كثير من الرجال يمضغون ما تبقى من القات، ويدخنون سجائرهم، ويتحدثون عن الحرب التي ستضع أوزارها صباحًا، وأن الرئيس الأسبق سيفرض الأمر الواقع، وسوف يفاوض التحالف لإنهاء الحرب... هتف أحدهم:

- ما لها إلا علي! ما لها إلا علي!

سَلِم العريس من الضرر الخارجي؛ لكنه لم يسلم من الضرر الداخلي؛ فقد أصيب بقرحة في المعدة، ولم يجد ما يهدئ ألمه، فخرج يشكو إلى الجنود. قال له أحدهم لائمًا:

- أنت تشكو من القرحة لأنك لم تلتقِ عروستك، ونحن لا نشكو جرحانا وقتلانا! لقد قتل أنصار الله أربعة من جنودنا في هذا الموقع! عُد بسرعة إلى مكانك قبل أن تصاب بقُرحة في الرأس!

عاد العريس إلى الصالة يسأل عن دواء، فالمعدة تأكل نفسها. نصحه شخص بأن يعادل حموضة المعدة بتناول القات؛ فراح يلتهم ما لا يؤكل من أوراقه كثورٍ أصيب بجنون الثيران، وأخذ الكثيرون يزيلون توترهم بالسجائر... كانت الانفجارات المتتالية تدوي بالقرب منهم، وبعض طلقات الرصاص تستقر في أعلى الصالة بالقرب من السقف. أخذ البعض يطلب سيجارة ممن حوله، وقد صارت محتكرة:

- حبة سيجارة لو سمحت! رأسي سينفجر يا أخي!

- والله ما معي إلا نصف واحدة، هذه التي في فمي!
- لو سمحت، هات الباقي!

***

كانت بعض النسوة قد توقّعن أن يعُدن من الصالة قبل الغروب، كنجلاء، التي حضرت مُتأخرة، ورأت أعدادًا من الجنود ينتشرون في الجولات؛ لكنها خاطرت لتحضر العرس. يقول عنها زوجها إنها "مدمنة أعراس، ولا سبيل لشفائها". باتت تبكي ابنها الرضيع؛ لم يتعود بعد على الحليب المجفف! كانت تتخيّل زوجها يشتمها ويلعنها وهو يُغيّر حفاظته، ويطهو العشاء للآخرين، دون معرفة مقدار الشاي والسكر ليضعه في ثلاجة الشاي...

بعض الأهل يتصل بخوف يُعبّر عن قلقه البالغ. لم يجد شيئًا ليقوله لزوجته إلا: "أنا أحبك". وهناك من يُظهر خوفه على الزوجة وهو على العكس من ذلك... أفرز غياب الزوجات عن منازلهن أشياء كثيرة كانت تحت الرماد، أو مخفية في صدور الأزواج.

حين تخرس أصوات الخراب يتداخل الهمس في الصالة؛ هناك من تشكو همومها وتسرد قصتها لمن بجوارها، مثل"تهاني" الملقبة بالشكولاتة، حدثت صديقتها "سرور" عن زواجها برجل من إحدى دول الجوار، وكيف طلّقها بعد ثلاثة أشهر... سمعت سرور قصة غريبة على المجتمع، وراحت تلعن الفقر، وتخبرها بقصتها هي... في مكان آخر من الصالة أخذت فتاة حسناء في الخامسة والعشرين من العمر تبث همومها عن خطيبها الغائب منذ ثلاث سنوات، يجمع مالًا للعرس من عمله في السعودية، دخل دون

جواز عبر منطقة "الوديعة" أثناء نزوح عشرات الآلاف من اليمنيين في بداية الحرب...

هدأت المعركة في منتصف الليل. بعض النسوة لم تستطع أن تنام لحظة واحدة، بسبب البرد أيضًا، وقد رفضن النوم بجانب أخريات لا يعرفنهن؛ فهن يرين ذلك فحشًا، فتكورن على أنفسهن، في ظل خوف سيطر على أجواء الصالة. الطريق إلى الحمام في العتمة كان متاهة. يتحسسن طريقهن كالعُميان وهن يمددن أيديهن إلى الأمام... وشر البلية ما يضحك، أحيانًا تتعثر البعض بأخريات، فتختلف ردود البعض، هناك من تشتم، وأخرى تضحك... كان البعض يمشين حبوًا حتى يصلن إلى بداية فسحة الحمامات. ولم تخلُ الصالة بين الحين والآخر من ضرطة هنا أو هناك، وغطيط امرأة يغلبها النوم؛ فيسري ضحك خجول.

***

اللواتي فقدن حليهن لم يعد يهمهن ما يجري في الخارج، يعضضن على القهر ويبلعن الدموع الحارة، ينتظرن بزوغ الفجر ليفتشن النسوة والصالة مرة أخرى؛ إلا واحدة لم تكف دموعها، من احتمال طلاقها؛ فقد استعارت حزامًا ذهبيًا باهظ الثمن من جارتها فردوس. بقيت تلوم تفاخرها وتكبرها على الغير، وتلوم جارتها أيضًا التي أعارتها.

في الجانب الآخر من الصالة، كان هناك امرأة أخرى لم تنم؛ ولكن من البهجة! تفكر بالحزام الذهبي الذي وجدته تحت أقدام النسوة، وهن يتزاحمن أمام الشرطية صباح لاسترداد الهواتف. أخفته في مكان لن يفكر فيه حتى الشيطان، خوفًا من التفتيش. باتت تحلم بشراء بُقعة أرض في

أطراف المدينة سرًا حتى لا يعرف المؤجر الذي يطالبهم بإيجارات تسعة أشهر متأخرة، وقد باعت آخر ما تملك من ذهب للإنفاق على البيت. بقيت تلك الليلة تفكر في تخطيط بناء بيت الأحلام...

مشهد النسوة كان مهيبًا، بجلابيب سوداء كقرية نمل، ينمن معًا، وقد سقطت أقنعة الزيف عن الوجوه...

***

السبت، الرابعة فجرًا:

دوى انفجار عنيف بالقرب من باب الصالة. منهن من وقفت على قدميها دون شعور، وحين أرادت أن تهرب سقطت على الأخريات وهن يتخبطن مثلها. واحتضنت وديعة "إقبال" وبادلها العناق. هناك مَن صرخت:

- اللهُ أكبر! عليهم اللعنة!

ومَنهن من تتحسس نفسها تتخيل أنها مصابة، ومَن تبكي وهي ترتجف خوفًا لا تستطيع أن تتحرك من مكانها... أغلبهن جلسن على مؤخراتهن وأيديهن على صدورهن يرددن:

- الله يلعنكم!

إحداهن كانت تتنفس بصعوبة وهي تلعنهم، وقد بللت نفسها بالبول، ثم طلبت شربة ماء. قالت إحداهن إن لديها القليل من الماء. تناقلن علبة الماء في الظلمة من يدٍ إلى أخرى، وكُلٌّ منهن تشرب من الماء

قليلًا فلم يصل إلى تلك المرأة إلا القليل منه. هتفت إحداهن من جنوب الصالة:

- هيّا! انهضن لتأدية صلاة الخوف، عسى الله يفرج همّنا ويحمينا منهم! هذه ذنوبنا!

إحداهن في شمال الصالة حلفت لمن بجوارها:

- هذه المرأة من الدواعش، أقرباؤها يحاربوننا في تعز وصرواح!

تناوبن الذهاب إلى الحمامات بضوء الهواتف، كجماعة نمل يتحرك داخل قريته. مضى البعض في التسبيح، أكثرهن سميرة، التي لم تتوقف عنه. اختلفن فيما بينهن: هل تجوز الصلاة على الكنبات والفرش أم لا؟! منهن من تقول: يجوز.. ومن تقول: لا يجوز، فالفرش غير نظيفة، وأشعة الشمس لم تقع عليها.. ساد الهرج والفتاوى، وأعدن حكاية دم البرغوث، هل ينجس الثوب أم لا؟! إحداهن أدلت بجواز الصلاة على الفرش، واستشهدت بأدلة من صحيح البخاري ومسلم... وإذا بامرأة تفتح فم الغضب وتقول:

- من أين جاء هذا البخاري بالأحاديث، والرسول مات قبله بمئة سنة، وقد قال "لا تكتبوا عني غير القرآن"؟! للمهْ نخالف كلامه يا خلق الله؟!

ضجت مُعظم الصالة بالاستنكار لِمَا قالته المرأة عن البخاري؛ لكن هناك من كان يؤيد ما قالته. ساد الاختلاف وهن يتوجهن نحو

القِبلة. تدخلت الشرطية لتهدئة الحرب العقائدية بين الألسن. كانت تصيح بكل جوارحها:

- يكفينا حربًا في الخارج حتى ننقلها إلى الداخل! مَن أرادت أن تصلي كما هو الحال هنا فلتفرش أي شيء تجده نظيفًا على الكنبات والمساند وتصلّي! ألف وأربعمائة سنة لم نتفق على دين واحد! قبّح الله السياسة والجهل والمال الذي يفسد حتى الأديان!

القِلة رفضن أن يصلين على فرش الصالة، وذهبن إلى مصلى الصالة الذي لا يتسع لأكثر من عشرين فردًا؛ وأدّين صلاتهن على دفعات، وهن يبتهلن إلى الله أن يفشل كيد الرئيس الأسبق... والرصاص يُسبح الشيطان خارج الصالة في استقبال يوم جديد. صلّت زينب الصومالية مع الغالبية العظمى. كانت تهمس لمَن بجوارها، وقد بدأت تكبيرات الإحرام:

- قد أنتم مثلنا، ما تسدوا حتى في الصلاة! أظن أصلنا منكم!

اللواتي أدّين الصلاة على الفرش أمّتهن امرأة رخيمة الصوت، كانت ترتل القرآن بصوت خاشع، صلّى خلفها حوالي ثلاثمائة امرأة. كان صوت الرصاص يربكها فتخطئ وهي تقرأ من "سورة النمل"، وامرأة خلفها تصحح لها. وبعد أن أنهت الصلاة راحت تدعو بالنجاة لهن وللأهل وعامة المسلمين. كان البعض منهن يبتهل لنصرة الحق، والبعض الآخر يبتهل لنصرة الزعيم، وأخريات يبتهلن لنصرة "جماعة هادي".

صلى إقبال خلف النسوة مرتين في مكانين مختلفين، لا يسجد إلا بعد سجودهن ولا يركع إلى بعد ركوعهن. أثناء الدعاء كانت امرأة تهمس لمن بجوارها:

- هذي المرأة التي صلّت بنا سلفية!

ردت عليها:

- السلفيات ما يحضرنش الأعراس؛ ما يعجبهنش الرقص والغناء. يمكن تكون إصلاحية!

دونت الصحفية: نساء صالة العرس المحاصرة يختلفن حول صحيح البخاري ومُسلم، البعض يطالبن بمحاكمتهما والحرب مازالت رَحاها تدور حول الصالة..، وأرسلت الرسالة.

***

أثناء الدعاء والتسبيح سمعن أصوات رصاص يطلق من سطح الصالة. استنكرن ذلك من احتمال الرد عليه. ازداد الخوف يكشر أنيابه بعد أن سمعن وقع رصاص في أعلى الصالة، وإحداها دخلت من نافذة بالقرب من السطح. إحداهن صاحت إثر سقوط قطعة إسمنت على رأسها. وزاد رعبها حين اصطبغ أصبعها بالدم. صاحت:

- دم! دم!

فصرخت امرأة بجوارها:

- المرة ماتت!

تكوّرت بعض النساء في أماكنهن كعصافير تبحث عن طوق نجاة! والبعض ذهبن يتخبطن في مشيتهن، ومَن هربت إلى الحمامات... اضطربت قرية النمل، ولم تهدأ إلا بحضور طبيبة كانت ضمن المدعوات وكشفت على رأس المرأة، ثم قالت لها:

- حرام عليك! خوّفتِ الصالة كلها! جرح بسيط، قطعة الإسمنت سقطت على رأسك!

دونت الصحفية في التلفون وأرسلت: امرأة تنجو من موت محقق في حفل عرس الصالة المحاصرة إثر سقوط صخرة على رأسها.

السبت، الخامسة صباحًا:

ودت النسوة لو تهدأ الحرب لينعمن بالنوم قليلًا. بعضهن سددن آذانهن بمناديل ورقية مبللة بالماء، وأخريات بأيديهن؛ لكن لا فائدة. لم يغمض لهن جفن حتى أشرقت الشمس. تحدثت امرأة غاضبة وهي ترفع حذاءها عاليًا، وتهتف بهن أن يحملن أحذيتهن، أن يرمين الجنود؛ ليبتعدوا بعيدًا عن الصالة، ويقتتلوا في مكان بعيد! وأضافت:

- كانت ساحة معركتهم جبال صعدة، تقاتلوا هناك لمدة خمس سنين، ليش نقلوها إلى كل مكان؟! الله يخرب بيوتهم!

كتم إقبال ضحكته وهو ينعم بحضن دافئ، يحدث وديعة أنهما سيكونان "صديقتين" بعد الخروج من الصالة. سألته عن سبب صوته المبحوح، وأقنعها بجوابه...

في صالة الرجال لم يناموا طوال الليل، وظلوا يتحدثون، إلا القِلة منهم تكوّروا حول أنفسهم، وتغطوا بشيلانهمليناموا كمشردي الطرقات بعد أن غلبهم النوم. راح أحدهم يقول:

- زوجتي مُدمنة أعراس! الله أكبر عليها! بكل عرس تريد فستانًا جديدًا وحق الكوافير والمُزيّنة... حتى ونحن هذه الأيام من غير رواتب! أظنها لن تفكر في الأعراس مرة أخرى!

قام آخر من مرقده وقال ضاحكًا:

- وزوجتي تتزين أمام الحريم أكثر مما تتزين لي! وفي البيت تبقى مثل الدِّجرة[١١]!

أحدهم كان غاضبًا، قال:

- يا ليت يمنعوا الصالات!

سأله آخر:

- هل لديك بنات؟!
- نعم، اثنتان في الجامعة.
- لو طلبت إحداهما صالة في يوم عرسها، هل سترفض؟!

صمت الرجل. وتدخل رجل آخر قائلًا:

- والله ما يقدر! بيكون يوم حزن بدل يوم فرح!

سألهم رجل آخر بحيرة:

- تقولوا حقنا النسوان رقدن الليلة في الصالة؟! تكون ألسنتهن طالت من الثرثرة طوال الليل!

هدأت معدة العريس بعد تناوله كمية من القات، واحتضن مسندًا وحاول النوم. صديقه ثامر همس لمحمد:

---

(١١) ساحرة عجوز.

- اتركه ينام، عسى يحلم أنه نائم بحضن عروسه!

أما صديقهم ناجي فحاول أن يكتم ضحكته، لكنه انفجر ضاحكًا، وهمس لهما أنه تخيّل أن التتار دخلوا الصالة واختطفوا عروسته نهلة وتفيّدوا النساء... وراح يحدثهم بأنه نام جيدًا بعد أن سد أذنيه بمنديل ورقي بلله بالماء، ولم يسمع إلا أصواتًا خفيفة، لا تفزعه من نومه إلا قذائف الدبابات، ثم يعود للنوم.

استمرت المعركة متقطعة حتى الصباح. طغت أصوات الرصاص على صوت أذان الفجر. قام أحد المدعوين ومر أمام العريس وهو مستلقٍ بجوار رفقته، يتوسّد سيف العرس تحت رأسه، ويحتضن مَسندًا أمامه. ضحك الرجل وقال له:

- صباحيّة مباركة يا عريس!

هتف آخرون وهم يضحكون بصوت واحد:

- صباحية مباركة يا عرييييس!

قام العريس مرتبكًا، يتساءل:

- أيش حصل؟! نهلة فيها شي؟!

وراح ينزع المنديل المبلل بالماء من أذنيه.

❊ ❊ ❊

الأمل المفقود

السبت السادسة صباحًا:

مر إقبال ووديعة، ونساء أخريات، أمام العروس وهي في حضن أمها. قُلن لهما بصوت خفيض:

- كيف حال العروس؟!

ردت أمها بصوت خافت:

- لم تنم إلا عند الفجر، باتت تبكي طول الليل!

هدأت الحرب وتوقعن أنها انتهت، وأن المشايخ نجحوا في مسعى الوساطة... فنامت أغلب النسوة، إلا اللواتي في شمال الصالة، كن في حزن عميق. سألت إحداهن:

- هل انتهت الحرب؟ مَن انتصر؟

وتساءلت أخرى:

- هل انتصر عفّاش؟!

***

عرف إقبال عن وديعة أشياء كثيرة، وتبين له براءتها وحرمانها العاطفي وعرفت هي مَن هو وسكتت... رأى نفسه يدخل معها حمام الصالة، ويغتسلان معًا، قبل تهافت النسوة على الحمامات... استسلمت له، وصارت كاميرا هاتفه تمسح كل تفاصيل جسدها، دون حجاب يُذكر،

وطال اللقاء... خرجت قبله وهي تواري وجهها حياءً من الأخريات، حتى لا تفضحها عيناها، أما هو فخرج وهو يشكر الشيطان، وطلب منه أن يصطاد له غزالًا إلى جانب النعجة. ظلت عيناه كعيني ذئب، تترقبان جمالًا شاردًا في الصالة.

***

النسوة في وسط الصالة تخيلّن أن المتشددين من مقاتلي "أنصار الله" يُقادون إلى السجن، وأن العالم كله يتحدث عن انتصار "الراقص على رؤوس الثعابين"، وعودته إلى عرشه... كنّ في سعادة، رغم الحرب، بينما كان الحزن يخيم على شمال الصالة. أمّا اللواتي في جنوبها، فكن في حيرة ويفكرن في ثورة أخرى.

أخذت النسوة يلبسن عباءاتهن ويجمعن أشياءهن، وكُلٌّ تنادي صديقتها، استعدادا لمغادرة الصالة. إحداهن وصفت ليلتهن بأنها لا تُنسى! لم تتخيل يومًا أنها ستنام في قرية نمل بشرية! أخرى تحدثت عن عودة الحق لأصحابه، وقهقهن كُلٌّ تضحك على هواها وفرحن بأن الغمة انزاحت. قالت إحداهن:

- هذا بفضل دعاء الليل، استجاب الله لدعاء المظلومين. أترين فضل الدعاء يا نسوان؟!

وفي جنوب الصالة قالت إحداهن بحرقة:

- اليوم سأندب شهداء جمعة الكرامة!

مشى إقبال في الصالة وجلس بجوار مجموعة أم فاتن، وهن يتحدثن عن المشاكل العائلية التي سببتها الحرب، المساعدات الأجنبية، النازحين، الكوليرا التي تفشّت مؤخرًا، انقسام المجتمع بين مؤيد للتحالف وضده، تحول الشرق غربًا والغرب شرقًا... تحدثن عن الانتحار، الحالات النفسية التي تفشت أخيرًا... وتحدثت أم فاتن بحسرة عن خسارة زوجها المقاول منذ بدء ثورة فبراير ٢٠١١م. شتمت ثورة الشباب، قائلة:

- أرادوا ترحيل الزعيم؛ لكنه بقي، ورحلوا هم!

قالت امرأة أخرى إنها باعت ثلاثة أحزمة ذهب. مُدرّسة اشتكت من عدم صرف الرواتب منذ ستة أشهر، وأنها لم تتسلم إلا نصف راتب قبل العيد، وقيل لها إنهم سيصرفون راتبًا واحدًا في السنة فقط، وأن على الموظفين أن يشدّوا أحزمتهم على بطونهم. ضحكت فاتن وقالت:

- إلى متى سيستمر الشد؟!

ردت المُدرّسة ضاحكة:

- حتى ننقسم إلى نصفين!

ضحكت المجموعة، وقهقه إقبال بصوت عالٍ، وبانت أضراسه الداخلية، قبل أن يتنبه إلى هذا التصرف الذي سيفضحه!... رحن يتحدثن عن نفاد السيولة المالية في البنك المركزي. كاد إقبال أن يقهقه، إلا أنه كضم ضحكته. كانت "سارية" تزم شفتيها بين الحين والآخر، تصلح وضع أحمر الشفاه. راحت تشكو أن أخاها الدكتور في الجامعة صار بسبب هذه الظروف يعمل بناءً.

ابتسم إقبال ابتسامة ماكرة وهو يسمع نساءً وراءه يتحدثن وقد اشتد الخصام بينهن. إحداهن تقول:

- لا يا حبيبتي، أصحاب الخيل[١٢] الذين خربوا البلاد انقسموا فريقين، كل واحد يرفس الثاني، بعدما كبروا أولادهم ما اتفقوا على التركة، مُش[١٣] شباب الثورة السلمية هُم المخربين! حتى صنعاء كانت مشطورة نصفين بشكل غير معلن! ألله يقشكُم[١٤] مثلما كنستم ثروة البلاد.
- وانتِ صدّقتِ أن الشباب كانوا سيحكمون البلاد؟! هراء! هراء.
- وأنتم ستنورونها بشمسكم بعدما كسفت؟! لو كان بقي الزعيم لما وصلت البلاد إلى هذه الحالة!
- كان زعيمكم سيورث الحكم لابنه! رجّع الجمهورية ملكية!

اشتدت المهاترة الكلامية بينهما، فالتفت إقبال وقال:

- أيش؟! شتتضاربين يا نسوان؟! انتهت الحرب وأنتن تتناقرين مثل الديكة؟!

ثم قام يتمايل خصره بحركات أنثوية، ويهز "ثدييه" ويحرّك مؤخرته... فضحكت وديعة حتى انتابها السعال.

(١٢) كناية عن حزب "المؤتمر الشعبي العام"، الذي كان حاكما، وكان الحصان رمزه الانتخابي، والشمس رمز الحزب الإسلامي "التجمع اليمني للإصلاح".

(١٣) ليس.

(١٤) يأخذكم.

كان الطفل عامر في هذا الوقت يجري طربًا في الصالة مع زملائه. أحدهم يردد شعار الصرخة، والآخر يوجّه يده كالبندقية نحو الآخرين، وبعضهم يلعبون لعبة التخفي، يختبئون خلف النسوة، لا يفرقون بين مجموعة شمال الصالة وجنوبها ووسطها. لم يكونوا يعرفون أن الحزن يخيم في شمال الصالة. أحدهم سأل امرأة وقد رأى عينيها دامعتين:

- لماذا تبكين يا خالة؟! الحرب انتهت!

وجلس يحدثها أن أباه لم يعد يشتري له شوكولاتة، وأنه قد كره "العصيد" والزبادي، ويوم العيد اشترى نصف كيلو لحم لا غير، واشترى له "بَدلة" رخيصة، وأن أمه هي التي تصرف على البيت وتدفع الإيجار... أعطته المرأة ألف ريال، قائلة:

- خذ هذا، ولا تخبر رفاقك الآخرين!

هرول الطفل فرحًا إلى أمه، حيث تجلس مع حشد جنوب الصالة، وهمس لأمه بما أعطته المرأة، فأنّبته على قبول الصدقات، وأمرته أن يعيد المال؛ لكنه أخفى المال في جيبه، وخدعها...

***

السابعة صباحًا:

استعجلت النساء استعدادهن للخروج، وكُلٌّ تودع الأخرى:

- مع السلامة يا أختي!
- كانت ليلة سوداء يا حبيبتي!
- ليلة لم يتخيّل مثلها حتى إبليس!

- لن أنسى هذه الليلة طول حياتي!
- نحن ننجب الأولاد، والحكام يتقاتلون بهم!

إحداهن قالت معترضة وغاضبة:

- لماذا تشتمين الحكام؟! هم ينصرون دين الله؛ لا يجوز شتمهم!

وإذا بامرأة قصيرة القامة طويلة اللسان تقول:

- لا يا حبيبتي، هم يفتنون بين الناس من زمان، من أجل يبقوا حكامًا! لو عشنا بلا حُكام وخفنا عقاب الله لعشنا بسلام، أو مُش كذا يا نسوان؟!

كن يستعددن لمغادرة الصالة. أثناء ذلك تعثرت إحداهن بأخرى. راحت المرأة تعتذر لها، لكنها لم تقم من مرقدها... حاولت أن توقظها؛ لكنها مستلقية على جنبها لا تتحرك. قلبتها على ظهرها فرأت عينيها مفتوحتين لا تتحركان! صاحت فزعة:

- المرة ميتة يا نسواااان!

تهافتت النساء يتفرجن. قالت إحداهن:

- قتلتيها يا مجرمة! أنا رأيتك تسقطين عليها يا فيلة، وتسحقينها مثل النملة!
- لا، والله ما قتلتها، هي كانت ميّتة! هُم قتلوها! هُم... أني تحكولت(١٥) بها!

---

(١٥) تعثرتُ.

احتشدت النسوة يَرَيْن وجه المرأة الشاحب، وجفنيها المفتوحين، ورُحن يؤنّبن المرأة التي سقطت عليها. تزاحمن حولها والخوف يعصف بقلوبهن:

- قتلوها! قتلتها! قتلوها!... لا حول ولا قوة إلا بالله! لا إله إلا الله! لا يدوم إلا الله! يا ساتر! لو بقينا هنا سنموت!

أقبلت امرأة وقالت إنها طبيبة نساء. أفسحن لها ممرًا. راحت تفحصها، ثم قالت:

- لقد ماتت منذ أربع ساعات تقريبًا. مسكينة؛ ماتت من الخوف!

خافت النسوة، ورُحن يسرعن بتجهيز أنفسهن للخروج. البعض أسرعن إلى باب الصالة الخارجي، ويصرخن بالجنود:

- المرأة ماتت في الصالة!
- كيف ماتت؟! بشظية وإلا برصاصة؟!
- ماتت من الخوف! قالت الدكتورة!

تجمعت بعض النسوة عند الباب يردن الخروج. إحداهن سألت العسكر:

- هل انتهت الحرب؟! مَن انتصر؟!

رد أحدهم متضجرًا:

- لم ينتصر أحد، والحرب لم تنتهِ، ممنوووع الخروج! قد تتجدد الاشتباكات في أي وقت! ارجعن إلى الصالة حتى تهدأ الأوضاع، مازالت المنطقة في حالة طوارئ!

- والمرأة الميتة؟!
- حين نجمع القتلى سنأخذها.

عادت النسوة غير مصدّقات كلام الجندي، يجرجرن أقدامهن مثقلات بالحزن. أخبرن البقية بما قاله الجندي عن احتمال بقائهن حتى الظهر. جلس البعض وقد وضع الحزن أكفَّه على الخدود، والعيون دامعة، وكُلٌّ تبث همها إلى الأخرى... كن يردن الخروج دون إذن العسكر؛ لكن البعض رأت أن ما من مشكلة إذا انتظرن حتى الظهيرة، حينها تكون الحرب قد وضعت أوزارها... جلس البعض يقرأن القرآن جوار المتوفاة، التي عُرف أنها تُدعى "بُثينة"، وسميرة تسبّح الله... إحداهن قالت باكية إنها جارتها، وأضافت:

- مسكينة! أنا السبب؛ أعطيتها الدعوة! لديها ستة أطفال، زوجها مُدرّس، واليوم يسرح بعربية في الشوارع يبيع أكواز الذرة... حين رأت بطاقة الدعوة ترجتني أن آخذها إلى عرس من حق الهاي هاي!

فتشن حقيبتها، فوجدن: كيك، كعك، علبة عصير، ونصف وجبة "بروست"...

دونت الصحفية: امرأة تموت دهسًا أثناء التدافع في صالة العُرس المحاصرة...

***

المرأة التي فقدت الذهب في الصالة لا تتحدث مع أحد. كفَّاها على رأسها تفكر: كيف تواجه جارتها، التي أعارتها الذهب، وزوجها؟! حين علمت أن العسكر منعوهن من المغادرة ابتهجت قليلًا! لم تشارك النسوة حزنهن على المتوفاة. أسرعت تبحث عن العرافة، وشيء من الفرح يلمع في عينيها. وجدت العرافة تجلس القرفصاء، ضامة ركبتيها إلى صدرها. جثت المرأة على ركُبتي العرافة متوسلة:

- أني فدا رجلِك! دُلّيني على الذهب، مع مَن هو؟! سأعطيك ما تريدين من المال!

قبّلت يديها وراحت تتحدث عن طيبة أهل تهامة، وأنهم أرقّ أفئدة... قالت العرافة:

- نحن لا نذكر أسماء، ولا ندلّ على شخص مُعين. نحن نذكر صفته فقط، وعليكِ أنتِ التأكد!
- تمام؛ لكن بسرعة قبل أن يُغيّر العسكر رأيهم ويسمحوا لنا بمغادرة الصالة!

ألقت العرافة الودع ثلاث مرات، ثم أشارت على المرأة أن تختار إحداها... ثم حدّقت في الودع المبثوث، وراحت تتمتم، قبل أن تقول:

- ضالتك يا حمامة مخفية في كيس قُمامة، أخفته امرأة سمراء طويلة القامة، عريضة المنكبين والهامة، في خدها شامة، حولها رِمّة من كل جانب، هي المغلوب وأنتِ الغالب، وما ضاع حق وراؤه مطالب. ستنالين المراد، بعد العناء والجهاد.

اندهشت "حمامة" أن العرافة تعرف اسمها دون أن تقول لها، وفرحت ببشارتها، وراحت تسرح بين النسوة وهي تحدث نفسها: يا حمامة، إن شاء الله ما تنتهي الحرب إلا وقد وجدتِ الذهب! ثم راحت تبحث عن النساء السُّمر الطويلات... لكن المساحيق ذات الماركات الممتازة "شِلد للأقنعة- طلاء ضد الخدش" مازالت تخفي البشرة السمراء... تمنت أن تذوب المساحيق في الوجوه كلها، لو تستطيع أن تغسل وجوههن بيديها؛ لترى أي امرأة سمراء في خدها شامة. تنقّلت في أرجاء الصالة كالمجنونة.

وجدت زينب الصومالية، وراحت تنظر في وجهها وتحدق فيه، لعلها ترى فيه "الشامة"! صاحت بها زينب:

- أيش يا مرة؟! أنتِ تشكّين بي؟! فتشيني!

ورفعت ثوبها حتى بان خصرها، وهي تتمتم بكلام غير مفهوم... خافت حمامة من ثورتها وابتعدت عنها وراحت تنقل عينيها اللتين تنبعثان جنونا مخيفًا بين الوجوه علّها تجد المرأة الموصوفة، وتحدث نفسها: الجن أخبروها باسمي، وسأجد المرأة التي سرقت ذهبي، أنا متأكدة!

***

السبت الثامنة صباحًا:

تجددت الاشتباكات، فابتهجت حمامة، وأيضًا النسوة اللواتي في الجهة الشمالية من الصالة. وعلى العكس، اندهش حشد النسوة في الجهات الأخرى. حينها كانت الصومالية تمر على النسوة وهي تعرج، لتبيع البخور. إحداهن قالت لها معترضة:

- وقت البخور الآن، في هذه الظروف؟!
- نحن في الصومال نتحارب في السوق، ما أحد يهرب من دكانه، والناس تبيع وتشتري، الحرب عندنا شُغل. أنا حاربت أربع سنين، وأصبتُ في ركبتي، وقال لي الكلب الذي أصابني من حركة المجاهدين "لو كنتِ رجلًا لقتلتك؛ لكنك حلوة، ولا تستحقين الموت".

راحت تخبرها كيف تم تهريبها إلى اليمن عبر البحر، وعن الذين ماتوا غرقًا أثناء التهريب... ثم جلست بجوار أخريات يتحدثن عن المرأة المتوفاة، التي صار منظرها مخيفًا لمن يشاهدها. تساءلت إحداهن:

- ماذا لو لم يأتوا لأخذ الجثة وطال أمد الحرب...؟!

أخذت النسوة كُلٌّ تبحث عن حلٍّ؛ إلا حمامة المنشغلة بمحنتها لا غير، تبحث في وجوه النساء السُّمر. وجدت امرأة سمراء طويلة، فاقتربت منها. مسحت ذقنها تفتش عن أي "حبة خال" سوداء، ثم طلبت منها هامسة أن تفتح حقيبتها وإلا... خافت المرأة وقد رأت الجنون في عينيها... أدخلت حمامة يدها تحت ثوب المرأة وجاست بيدها حول خصرها وتحت عانتها...

دوَّنت الصحفية: جثة المرأة بدأت تتفسخ في صالة العُرس المحاصرة. أين ضمير الأمة؟!

***

هدأ أزيز البنادق وهزيم القصف، فذهبت ثلة من النساء ليسائلن الجنود، يتوسلن السماح لهن بمغادرة الصالة. صاحت إحداهن تسألهم:

- ألن تنتهي الحرب؟!

وسألت أخرى:

- مَن انتصر؟!

رد أحدهم من متراسه:

- علي عفاش أعلن فك التحالف مع أنصار الله، ودعا الشعب إلى الهبّة ضدهم. والمعارك ستندلع أكثر بعد هذا التصريح. عُدن إلى الداخل إلى أن يفرجها الله، هيّا بسرعة!

عُدن يتسابقن لينقلن الشؤم. إحداهن تولول أن الحرب في بدايتها. أخرى تشكو الموت جوعًا... النساء في الجهة الشمالية زاد قلقهن أكثر، وعيونهن تتحدث عن خيبة أمل، بعد حلم جميل امتد ثلاث سنوات... رحن يشتمن الرئيس الأسبق، الخائن، ويتمنين له هزيمة نكراء. ندبن أقاربهن الذين ضحوا بدمائهم دفاعًا عن الوطن ضد العدوان في: عدن، تعز، مأرب، الجوف... وفي الحدود مع السعودية. أخذت إحداهن تضرب كفًّا بكف وتندب:

- سأبكي الآن على مَن ماتوا من أهلي! أخي وابنه وابن عمي... وا أسفاه على دمائهم! وا أسفاه!

في الجهة الجنوبية كانت النسوة يفكرن: كيف ستتفاوض "جماعة هادي" مع الرئيس الأسبق؟!

الأطفال يمرحون في أرجاء الصالة، فالجوع لم يعتصرهم بعد. يلعبون لعبة الحرب: طاخ، طيخ، طاخ... البعض يتخفى خلف الأعمدة أو خلف النسوة، وآخر يمثل أنه أصيب، فيصيح المنتصر مفتخرًا:

- قتلته!

لم يشعروا بالخوف؛ إلا فتاة تحاول إظهار شجاعتها بالبسمة المزيفة المرتجفة بين شفتيها!

الشيء الوحيد الذي كان يوحّد الجميع هو اهتزاز النوافذ! يدب الرعب ويلعنّ الحرب. حتى تلك اللحظة لم تتضرر إلا بعض النسوة اللواتي نمن ليلتهن تحت النوافذ المكسورة. استيقظن صباحًا وهن يعانين من أعراض الزكام، بل إن إحداهن بدا صوتها على وشك التلاشي!

***

العاشرة صباحًا:

سقطت قذيفة في جدار حوش الصالة وفتحت ثغرة في العمارة المقابلة. حينها كانت امرأة تقف بجوار النافذة تنظر إلى الخارج. رأت الانفجار المخيف، فدفعها الانفجار والرعب إلى الخلف! حاولت أن تعود إلى صديقتها، فاصطدمت بامرأة أخرى وسقطتا على الأرض. غضبت المرأة وقالت:

- عمياء أنت والا أيش؟! قومي من فوقي! الله يقصف[١٦] عمرك! أوجعتِ ثدي! آي! آي!

---

(١٦) يميت في منتصف العمر.

قامت المرأة المرعوبة مادّة يديها إلى الأمام حتى لا تصطدم بامرأة أخرى، وراحت تصيح:

- عيوني! عيوني! أنا لا أرى!

وقفت إحداهن أمامها فاصطدمت بها، وتأكد للكل أنها فعلا لم تعد ترى. "كيف لا ترى وعيناها كعيون المها، وكانت تنظر من النافذة قبل قليل؟!"، هتفت الفاقدة بصرها بفزع:

- المجرمة مرعتني(١٧). قالت لي أمس إن عيوني مثل عيون البقرة! أين هي؟! يا رانيا! أنتِ تعرفيها، أمسكيها!

أقبلت رانيا تقول: مش معقول يا نسرين! اعتميت؟! أيش حصل؟!

- أمس قالت لي أمامك إن عيوني كعيون البقرة! مرعتني، أمسكيها واقطعي من طرف ثوبها، أتبخّر به!

ذهبت رانيا، ورفضت نسرين أن تجلس، وبقيت واقفة في مكانها والدموع في عينيها، والنسوة حولها مذهولات مما حدث لها. البعض يواسينها، لكن الكثيرات لم يكترثن؛ فهن في مأزق نفسي آخر، يسمعن دوي الموت يتزايد ويكاد يطبق فكّه على الصالة. عادت رانيا تقول:

- لم أجدها يا نسرين!
- ابحثي في كل مكان.

رانيا وجدت المرأة خارجة من الحمام. قالت لها:

---

(١٧) أصابتني بعين.

- أنتِ أمس مرعتِي نسرين أمامي! تعالي معي...

ذهبت معها، وتبعتهما أربع أخريات. أجبرتها على قطع قطعة من ثوبها، وأحرقتها لتبخّر نسرين بدخان القطعة، والنسوة يتزاحمن حولها بفضول يتفرجن هل ستشفى! لم يتغير من الأمر شيء. هتفت نسرين:

- قُصّي من شعرهااااا! أنا عميت بسببها!

رفضت المرأة الفكرة، واستعدت لتدافع عن نفسها، نافية صِلتها بما حدث. نشب في الصالة صراع من نوع آخر؛ البعض وقفن مع الفاقدة بصرها، وأخريات مع المتهمة. حضرت الطبيبة وفحصت الفاقدة بصرها، واتضح سلامة عينيها وعدم إصابتها بأي شظية. رجحت الطبيبة أن السبب نفساني، نتيجة الخوف من الانفجار الذي رأته أمامها، وحذرت النساء من الوقوف أمام النوافذ. الكثيرات التزمن النصيحة، أما الفضوليات فستصيبهن قرحة المعدة إن لم يشبع فضولهن؛ فحين يسمعن انفجارًا أو طلقات نارية يهرعن إلى النوافذ... إحداهن كان يعجبها أن ترى الجنود وهم يطلقون قذائف الـ (آر بي جي)، وتسرد لهن ما شاهدته وتنقل الخوف للأخريات، وتتعجب من عدم خوف الجنود من الرصاص الذي يقع بالقرب منهم، كأنهم مخدّرون لا يهابون الموت، كأنهم آلات قتل!

دونت الصحفية: "خمس نساء يُصبن بالعمى، والسبب مجهول، في صالة العرس المحاصرة"...

كانت سماء المدينة صافية، وإذا بها تظلم فجأة. أقلعت العيون إلى السماء فجيعة! ظنوا في البداية أنه الكسوف؛ لكنها سحابة غُبار في غير موسمه حجبت الشمس عن المدينة! فلم يعد يُرى الجنود في متارسهم،

وعلت أصوات المساجد بالتسبيح والتهليل. أما النساء في الصالة فقد هللن كثيرا، ورأين أن الفرج من الله آت للبلاد، وما هذه إلا إشارة منه للمتقاتلين على الباطل.

خرست أصوات الشر، ولم يعد يُسمع إلا صوت الحق في المساجد! وهلل الناس حين سمعوا صوت طائرتين تتحطمان عرض جبل نُقم، وأخذ الجنود يسبحون لله بدلا من تسبيح بنادقهم للشيطان.

بقيت شمس المدينة محجوبة لمدة نصف ساعة. أثناء ذلك عادت القلوب إلى الله. وما إن انقشعت الغُمة وزالت الكُربة وسطعت الشمس مجددًا، عاد المتقاتلون إلى مواقعهم خلف المتاريس.

***

الحادية عشرة صباحًا:

بلغ السيل الزُّبى، وازدادت الشَّكوى، والرعب يعبث بالنسوة، والجوع بدأ ينهش البطون، ولم يعد هناك ماء للشرب غير ماء الحمامات، يذهبن خلسة ليشربن منه... ذهبت مجموعة منهن يطلبن من الجنود طعامًا وماءً نظيفًا. وفوجئوا حين عرفوا عددهن. وقف أحدهم يتفرج عليهن، ثم لطم ناصيته:

- خمسمائة حُرمة؟! أووووه! مش معقول! ارجعن إلى الداخل قبل أن تصاب إحداكن برصاصة أو شظية. هيّا بسرعة! لا حول ولا قوة إلا بالله!

في اللحظة نفسها اخترقت رأس الجندي رصاصة، فهرعن عائدات إلى الصالة تسبقهن امرأة سمينة كانت تمشي بتثاقل، وهن يسمعن زخات الرصاص ردًا على القناص... يصرخن:

- العسكري مات! مااااات أمام عيوننا!
- اللهُ أكبر عليهم! الله يلعن الشيطان الذي يسمعون كلامه ولا يعتبرون لغضب الله!

سمعهن إقبال يلعنّ الشيطان فقال لنعجته:

- أتسمعين؟! لماذا يلعنّ الشيطانَ؟! إنه مظلوم! هل أجبرهم على فعل شيء؟! إنه شماعة يُعلقون عليها أخطاءهم!

لم تعد عقول النسوة تفكر، بل بطونهن. سألتهن امرأة بدينة كأنها لم تسمع كلامهن:

- ماذا قالوا عن طعامنا؟! نحن جيااااع، ولم يعد لدينا ماء! هُم يموتون من التخمة، ونحن سنموت جوعًا! أين المنظمات الإنسانية تنقذنا من أبناء وطننا؟!

ردت سامية متبسمة:

- داخلك أكل يكفيك ثَنة[١٨]! ما شاء الله! أهم شي الماء!

ضج المكان بالضحك، فغضبت المرأة البدينة وودت لو تذهب لتجثم على صدر سامية، وراحت تشتمها في نفسها: "داعشية، عميلة، خربتم البلاد...!"

---

١٨ سنة

كتبت نبيلة الصحفية: شجار عنيف على فُتات الطعام في صالة العرس المحاصرة..، وأرسلت الرسالة النصية.

***

سمعت فاطمة، أخت العروس، شجارًا في الحمام، ورأت البعض يسرعن إلى هناك، فذهبت لمجرد الفضول. وجدت امرأتين تتشاجران، إحداهما تتهم الأخرى بمسح شعار "الصرخة" المكتوب بأحمر الشفاه على مرآة الحمام، والأخرى تقول:

- كيف يحاربون "إسرائيل" وأمريكا داخل اليمن؟!

فترد عليها:

- نحن نحارب عملاءهم في كل مكان. أنتِ تقفين مع العدوان على بلادنا، يا داعشية!

راحت المرأة المتهمة تشتمُ العُملاء والمنافقين وأمريكا و"إسرائيل"...

كان الطفل عامر يستمع إلى ذلك، واندس بين النسوة، يحاول أن يفهم ما معنى "الصرخة". أخبرته فاطمة بأنها ستشرح له فيما بعد. لم يقتنع، وراح يصرخ بقوة:

- ما معنى الصرخة؟!

وهو ما أضحك الكثيرات، فردت عليه إحداهن:

- أن تصرخ في وجه المُستكبرين في الأرض!

وأسرعت فاطمة تأخذه بعيدًا. تدخلت نساء أخريات وأقنعن المتخاصمتين بأن الجميع في سفينة واحدة؛ فإذا غرقت غرق الجميع، وأن المتحاربين في الخارج لا يفكرون فيهن، وأن الله أرسل إشارة غضب منه، ولم يعتبروا. عادت المتنازعتان كُلٌّ إلى مكانها تفكر في صدق موقفها.

دونت الصحفية: شجار على شعار الصرخة أدى إلى اشتباك ونتف شعر الرؤوس في صالة العرس المحاصرة..، وأرسلت الرسالة.

***

بدّل إقبال بطارية الهاتف في الحمام، وراح يشاهد حالهن المأساوي؛ الشعر، تبعثر الماكياج في الوجوه... تماهت أقنعة الزيف؛ لكن كل هذا لم يعد يهم النساء. حتى الحرب لم يعُدْن يخفن منها قَدْر خوفهن من الموت جوعًا. صارت المعدة هي العقل المُفكر، والبدن يستجيب لها: أين الطعام؟! أين الماء؟! ليس لها شأن بما يجري في الخارج من تناحر على مائدة السلطة المعجونة بالدم. لم تعد المعدة الخاوية تعطي مجالًا للسؤال عن شيء آخر غير مائدتها.

كانت نسرين، الفاقدة بصرها، ما تزال تبكي، وتمسح أنفها المُحمرّ، وقد بان حجم عينيها الحقيقي بعد سقوط رموشها الصناعية، واصطبغ الخد بسواد الكحل. لم تتحرك من موقعها وهي تشد حقيبتها إلى كتفها، وبين حين وآخر تنادي صديقتها:

- أين أنت يا رانيا؟!

لم تعد تأبه لدوي القذائف في الجوار، كأنها قد أصيبت بالصمم أيضًا! ولم تعد تهتم بما يجري حولها. حين لم ترد عليها صديقتها، تنهمر دموع الخوف والأسى بصمت. وحين تعود تعاتبها:

- عليك أن تخبريني حين تذهبين إلى أي مكان! لا أحد هنا غيرك يوصلني إلى البيت حين نعود!

لم تشعر بالجوع مثل الأخريات. تفكر لو أنها ماتت، كيف ستعيش في الظلام ما تبقى من حياتها؟! لو أنها خُلقت عمياء لاعتادت الظلمة! ما روَّعها أكثر هو تفكيرها بتسوّل الطعام والعيش عالة على الغير! لو امتلكت كنوز سليمان لوهبتها لمن يرد لها بصرها.

***

الثانية عشرة ظهرًا:

ازداد الجوع وراح يعتصر البطون، الأطفال خصوصًا. لم يعد أحد منهم يلهو. عيونهم تبث الأسى، تستجدي أي شيء يؤكل! أدركوا أنهم في مأزق، لاسيما حين عرفوا أن الماء الصالح للشرب لم يبقَ منه إلا القليل. بعض النسوة أخفين وجبات طعام في حقائبهن ليأخذنها إلى البيوت. أعطين الأطفال بعض الطعام، بعضهن تقضم قليلًا منه. الأسى والخوف يطوفان الصالة. كُلٌّ تحدث نفسها أو التي بجوارها عن الحرب الملعونة والحصار، وأهلهن في الخارج، الذين لم يعملوا لهن شيئًا.

فجأة خرج إقبال ونعجته وديعة من الغرفة الخاصة بتموين الصالة، يصيح:

- الدجاج! البروست!

هبّ الجوع من غير هُدىً نحو الغرفة، وفغرت أفواه الأطفال:

- بروووووست!

أقلعت أعينهم نحو الصوت لترى الزحام عند باب الغرفة، بطونًا تتعارك على الطعام! كن يشققن الطريق بالقوة داخلات أو عائدات! البعض تحمل وجبتين، والبعض ثلاثًا، في أطراف ملابسهن! لم تتمكن الشرطية صباح من أن تنظمهن. لم يفت إقبال تصوير الجمال الجائع، والعيون المتهافتة على لقمة عيش!

سقطت وجبة غذائية على الأرض. داستها الأقدام. انتزعتها فتاة وراحت تمسحها. هرعت إليها قريبتها لتشاركها. البعض ذهبت تشارك صديقتها. إقبال يمسح بعدسته كل ذلك التهافت، يحدث نفسه كم سيجني من فيلمه، وهو يصور تغيّر سلوك وطموح الإنسان بين عشية وضحاها نتيجة الحروب والجوع، وكيف أن الجوع يعود بالإنسان آلاف السنين إلى الخلف؟! بالأمس كُنّ في زهو يعانين من التخمة، واليوم ينحدرن إلى القاع! يستطيع أن ينال ما يشاء بوجبة غذائية! يستطيع الآن أن يصطاد غزالًا وقد أخفى ثلاث وجبات بروست؛ لإغواء غزال تأكلها خفية بعيدًا عن العيون الجائعة! سيساوم من يعصرها الجوع بوجبة شهية ما زالت لم تفسد. راح يفتش كذئب عن غزال جائعة توافق هواه.

رائحة البروست أثارت شهية النسوة. كُن يمشين بجوار أكياس القمامة ويرين "حمامة" تبحث عن الذهب هناك، وقد عبثت بكل الأكياس كالقطة، وهي تحدث نفسها بصوتٍ مسموع:

- ستجدينه يا حمامة في كيس قُمامة...

كان بعض النسوة يلقين نظرات على قِطع البروست الملفوفة في أكياس نظيفة، زهدت بها ذوات الترف من وجبة عشاء الليلة الماضية. لم يجرؤن على مد أيديهن لأخذ ما يصلح للأكل؛ لكن البعض دست خلسة ما تريده في كيس؛ ولأنهن يتوقعن أن حرب أحفاد البسوس ستطول، رحن يحشون بطونهن بما وجدنه صالحًا.

***

لم تسد تلك الوجبة إلا القليل من جوع ذوات الجرأة. أما الخجولات فقد تضورن جوعًا. بعد أن سد الطفل عامر نافذة جوعه ارتقى منصة الصالة، وراح يرقص رقصة "لحجيّة" ممسكًا بسرواله كما تفعل الراقصات حين يمسكن ملابسهن الطويلة ليرفعنها قليلًا أثناء الرقص. صفق له الأطفال، واختلط الضحك بالحزن.

وجد إقبال غزالًا حسناء في ربيع العمر. نظر إليها بعين الذئب. اقترب منها، وهمس لها:

- أنتِ لا تستحقين الجوع!

طلب منها أن تتبعه، وهو يشكر الشيطان الذي أوقف في طريقه غزالًا كهذه! سار بها نحو الحمّامات. أخبرها أن لديه وجبة بروست صالحة للأكل، ولن يعطيها إلا في الحمام، بعيدًا عن العيون الجائعة. دخلت الفتاة أولًا، ولحق بها سريعًا:

- على مهلك! لا تستعجلي! استمتعي بالطعام!

خرجت بعد عشر دقائق. وراح إقبال يشكر الشيطان مرة أخرى، أن خلعت الفتاة سروالها لتتبول أمامه!

بدأت النسوة بجانب جثة المتوفاة يتأففن من رائحتها، والحديث يدوي كدوي النحل، يتساءلن:

- هل سيأخذون الجُثة؟!
- متى سيأخذونها؟!
- إذا لم يأخذوا الجثة، فأين سندفنها لو طال أمد الحرب؟! مجانين السلطة لا يفكرون إلا في أنفسهم!

مضت الشرطية مع سامية، يتوسلان الجنود أن يأخذوا الجثة. شاهدتا جثة رفيقهم مازالت في مكانها. قال لهما أحدهم بغضب:

- مش وقت رفع الجُثث. الآن يسعفون الجرحى. المعركة لم تحسم بعد!

قالت سامية:

- خذوا الجثة بثُرعة (بسرعة) قبل ما تتعفن!

عادتا إلى الصالة لتجدا تذمر النسوة من الجثة. قالت الطبيبة:

- رائحة الجثة لن تفوح قبل مضي يومين. حينها ستكون الحرب قد توقفت، وإلا سنضطر لحملها إلى الشارع وسيأخذها رافعو الجثث من الشوارع. في الحروب عادة ما تكون هناك هدنة لرفع الجثث.

أدرك الأطفال ما تفعله الحرب، فماتت البسمة في الشفاه، وتماهى نشاطهم واستوطنهم الخوف. كانت بعض النسوة حين تجد شيئًا في حقيبتها تمد به للأطفال. وهم يسألون ذويهم:

- متى ستنتهي الحرب؟! لماذا يتحاربون؟! لماذا لا يعطوننا الطعام والماء؟!

لم تعد النسوة يتحدثن عمّن سينتصر في الحرب. خصامهن تراجع كثيرًا؛ فمصير الكل واحد في هذه المقبرة الجماعية. فقط يفكرن كيف ينقذن أنفسهن من حصار خانق، والجوع يستبد بهن، ورائحة الجثة تفوح، والحرب القذرة مازالت رحاها تدور في الجوار... مَن سينتصر سيزف إلى كرسي عرس الدم.

بينما كان الجوع يعتصر البطون، كانت "غزال البروست" في الحمّام تشعر بمغص حاد وتتقيأ ما في جوفها. راحت تبحث عن إقبال بين خمسمائة امرأة، وهي لا تدري أن آلاف العيون الوقحة ستراها وهي تتبول في الحمّام، كُلٌّ سيسأل: كيف حدث ذلك دون...؟! كان هو يراقبها من بعيد كثعلب.

ما كان يهتم به طهاة الحروب، هو أيضًا تقديم الطعام الجيد للجنود، الذي قد يكون طعامهم الأخير، قبل أن يتحولوا إلى وجبات شهية للحرب التي لا تشبع. ولا يفُوتهم القات أيضا، ليبقى الجندي يقظًا.

***

الواحدة عصرًا:

تقدمت إحدى الفضوليات والجوع يعتصر معدتها إلى نافذة الصالة، وراحت تشاهد سور الصالة المُهدم والفتحة التي أمامها في جدار الطابق الأول من العمارة التي أحدثته قذيفة هون. عادت إلى صديقاتها،

تحدثهن بحذر وفرح: سنتسلل إلى داخل العمارة المقابلة؛ للبحث عن طعام فيها.

اصطحبت سبع نساء والجوع يدفعهن للمغامرة، ورحن يحبين سريعًا في ساحة الصالة إلى أن وصلن الفتحة. دخلن العمارة بحذر خوفًا من الجنود الذين يتمترسون في الدوار الرابع. وجدن في المطبخ كيسًا من الدقيق وجالون زيت وحفنة من الأرز.

عادت إحداهن تجري بحذر إلى الصالة؛ لتخبر النسوة بما وجدنه! واصطحبت خمس نساء أخريات.

أسرعن بعجن نصف الكيس في وعاء بلاستيكي للغسيل. كن خمس نساء يعجن معًا والمعدة الجائعة تخطف لقمة منه وهن يضحكن.

طهون مئتي رغيف خبز إلى أن نفدت أسطوانة الغاز ومازالت هناك كمية من العجين. وهن يلعنّ الحرب والمتحاربين أخذن الأرغفة إلى الصالة وحملت إحداهن ما تبقى من العجين.

إحدى الفضوليات كانت تقف أمام النافذة. هتف بها الجوع ملء فمه: طعاااام! وإذا بالكثير يقفن فرحًا، والأطفال يصفّقون، والوجوه تتهلل. حين عرفن كمية الطعام، قالت امرأة بحزن ودهشة:

- نحن خمسمائة امرأة يا خَلق الله! هذا لا يكفي!

قالت امرأة بحنق:

- نستحق. خاطرنا وحضرنا، ونحن نعرف أن الأوضاع الأمنية متوترة!

تزاحمت النسوة على الطعام! اعتلت الشرطية صباح كرسيًا، وصاحت بهن:

- لولا مخاطرة النسوة لدخول العمارة وقيامهن بإعداد الخبز لمتنا جوعًا. سنفتش الطابق الأول والثاني من العمارة يمكن أن نجد ما ينقذنا من الجوع! أريد الآن عشر نساء يقمن معي بتوزيع الطعام بالتساوي.

هتفن كُلٌّ تريد أن تساعدها. اختارت عشرًا منهن، وقسّمن الخبز الواحد إلى قطع صغيرة، وراح جوعهن يلتهمه في مشهد مضحك مبكٍ في آن واحد، إلا العروس، رفضت أن تتذوق شيئًا. ثم راحت بعض النسوة يتداولن صحن العجين من يد إلى يد، حتى اختفى العجين في بطونهن.

الفاقدة بصرها أيضا لم تأكل شيئًا، فقد نسيت صديقتها رانيا أن تتسلم حصتها. أخبرتها أنها لا تشعر بالجوع، وتحتاج الماء فقط. ذهبت رانيا تسأل عن الماء، فعرفت أنه لم يبق شيء من الماء النقي. ذهبت إلى القمامة وأخذت قنينة ماء فارغة، وملأتها من صنبور الحمّام. رشفت الفاقدة بصرها منها رشفة، وقالت بتأفف:

- من أين أحضرتِ هذا الماء؟!
- اشربي يا نسرين، لن تجدي غيره، الحرب ستقتلنا عطشًا، اشربي، فقد شربتُ منه، وكذلك كل النساء!

بعد وجبة الإنقاذ بكت أُمٌّ مرضعة وهي ترى الموت يعبث بطفلها. خرجت مسرعة من الصالة تتخيل طفلها أمامها وتسمع بكاءه، لكن الوضع غير الآمن منعها من المخاطرة بحياتها، فعادت لتجلس وتدعو الله

أن يوقف الحرب. في الوقت نفسه كانت حمامة لا تزال تُفتش في وجوه النساء السُّمر عن حبة خال سوداء، وتبحث تحت الفرش، وتتحسس خصور النسوة، شاردة الذهن، تسأل نفسها: "من أين أعوّض قيمة ثمانمائة جرام ذهب؟!"

خفّ التراشق بالنار كهدنة شيطانية للتخطيط لِمَا هو أقبح أو لخداع الآخر. توهّم العديد في الصالة أن الحرب توقفت، وأن المشايخ الوسطاء نجحوا في فض الاشتباك بين المتناحرين من أجل خدمة الوطن والشعب والتضحية من أجله، كما يدّعي كُلٌّ منهم. ذهبت بعض النسوة، بينهن المرأة المرضعة، يسألن الجنود:

- هل وقفت الحرب؟! مَن انتصر؟! هل ستسمحون لنا بالخروج الآن؟!

رد أحدهم بأن المعركة يمكن أن تشتد أكثر، لكن المرضعة أصرت على العودة إلى رضيعها، فجرت في اتجاه منزلها دون لثام، وصوت رضيعها يملأ أحاسيسها. كان خوف النسوة يشاهدها، وقد وضع أكفهن على خدودهن، ويدعو لها بالنجاة. في الوقت نفسه كان أحد الجنود من خلف مترسه يراقب تحركات جندي مُعادٍ، ويتربص به. أطلق رصاصة وهتف:

- أصبت القناص اللعين! لقد قتل أربعة منا! يمكن لهذه المجنونة أن تنجو في هذا الشارع!

وصلت المرأة إلى نهاية الشارع، ثم انعطفت شمالًا، وفرحت النسوة باجتيازها الشارع. وفجأة سمعن طلقات نار من اتجاهها! تخيلنها تتخبط في دمائها فصاحت إحداهن:

- السفاحون، القتلة! لا يرحمون حتى النساء!

إحداهن من وراء حائط حوش الصالة، سألت الجنود عن احتمال موت المرأة. رد أحدهم:

- لا ندري، تلك المنطقة خارج سيطرتنا!

تدخل جندي آخر يجلس في غرفة حارس الصالة، حيث تجمُّع جنود الموقع:

أبشرن! سمعنا الآن خبرًا أنهم اتفقوا على إيقاف الحرب، تدخل الشيوخ الذين بيدهم الحل، لكن لا يزال حضر التجوال ساريًا في المنطقة.

تسابقت النساء على العودة، كل تسعى لتكون السبّاقة؛ لتزف البشرى للأخريات. هتفت التي وصلت أولًا:

- اسمعن يا مكالف[١٩] المشايخ حلّوا المشكلة! الحرب ستتوقف، جهزن أنفسكن للخروج!

فرحن، ورحن كُلٌّ تبارك للأخرى. ولم يعد يهمهن مَن انتصر في الحرب. عمّت الفرحة الصالة كلها، حتى أنهن نسين العطش والجوع، ورحن يضحكن مرة أخرى على ما جرى لهن خلال بقائهن في الصالة، كلٌّ

(١٩) نساء.

تفرغ ما في داخلها... إلا حمامة وهي تبحث عن الذهب أخذها اليأس من هذا الخبر الذي أفرح الأخريات.

رحن يتحدثن عن الشيوخ. إحداهن قالت:

الحرب حربهم، إن اتفقوا أوقفوا الحرب، وإن اختلفوا أنزلوا ثيرانهم المُصارعة، وديوكهم إلى الشوارع!

***

اللواتي نمن تحت النوافذ المكسورة ليلة الجمعة، كن يرتجفن من الحُمّى. التي فقدت صوتها تشير بيدها كالبكماء. زاد مأساتها أنها لا تستطيع أن تكتب؛ فكانت أحيانًا تلطم رأسها غيظًا حين لا تستطع أن تعبّر عمّا تريد. تعبيرها كان مضحكًا حين تشتم الحرب، وحين تتحدث عن الذهاب إلى الحمّام.

الوقت الثانية عصرا:

توقعت النسوة أن يناديهن الجنود للخروج، فهن في حالة طرب صاخب، ولم يعدن يفكرن في الجثة الملقاة في الصالة، بل ولم يعدن يشعرن برائحتها! طغت الفرحة بالعودة إلى المنازل على كل ما حدث لهن خلال اليومين الماضيين، ونسين خلافاتهن السياسية والعقائدية. وأخذت كل واحدة تودّع الأخرى مرة أخرى. كان البعض يضحك مما جرى، والكل ينتظر ساعة الإذن بالخروج. بقيت الفاقدة بصرها قابضة على يد صديقتها رانيا، لا تدري مِن أين أتتها تلك القوة، وهي تتحرك معها حيث تذهب، تتعثر بالنسوة أحيانًا فيعذرنها ويدعين لها بالشفاء، وهذا يزيد حزنها حين

يدعين لها. شعرن بصدق كلام الجندي إذ لم يسمعن طلقة واحدة منذ نصف ساعة! والبعض توّقعت حضور أهلها لأخذها. حلفت إحداهن أنها لن تحضر عرسًا في صالة مرة أخرى. وقالت امرأة كبيرة في السن:

- ما كُنا نعرف الصالات أيام زمان، من أين أتت لنا هذه العادة؟! كانت الأعراس بسيطة، يحضرها الأهل والجيران لا غير! يا بنات هذا العصر، أنتن تقلدن كل ما ترينه في الخارج! ليتكن تقلدن ما ينفع البلاد.

ردت عليها أخرى:

- صحيح يا خالة، ما نقلّد إلا السيئ.
- يا خالة، هي ليلة في العمر.
- ليلة في العمر تكلف العريس الكثير. هذا لا يجوز يا بنتي. أحيانًا والد الفتاة ينفق كل ما معه على عرس بنته. زمان كان الأب يكسب حين يزوج بنته!

أثناء فرح النسوة بالفرج، كانت حمامة تجلس مُنكسة رأسها تعصر خصلة من شعرها، وتحدث نفسها حزينة: يا حمامة! يا حمامة! اذهبي إلى بيت أخيك وتحمّلي نذالة زوجته، حتى يحل هذه المشكلة! سأذهب قبل أن يطردني زوجي!

ضحك البعض على سامية وهي تقول:

انتهت الحرب يا نثوان (نسوان)، الزعيم انتثر (انتصر)، الله ينثرُه (ينصره)!

فجأة سمعن دوي انفجارات وقذائف تتساقط على سطح الصالة وفي الحوش وفي أماكن متفرقة. أسرع فضول بعضهن يهبّ إلى النوافذ، يتفرجن بحذر. إحداهن هتفت:

- انزلن يا قِحاب! ستصيبكن الشظايا!

نزلت إحداهن وراحت تصفع تلك المرأة، وعادت دون أسف تتفرج. تجمدت المصفوعة، وتسمرت يدها على خدها، مصدومة، ومذهولة من جنون المرأة. ظل الفضول يتلصص وينتقل بحذر وخوف من نافذة إلى أخرى. هتف:

- ضربوا هنا! أصابوا هناك! حريق! حريق...

رأين الجنود يعتلون العمارة الملاصقة للصالة، ويتخذون للموت مواقعه في كل الأدوار الأربعة، وفوهات النار تبرز من كل نافذة. عرفن أن المعركة أخذت تتصاعد، وأن المشايخ لم يتفقوا، فراح الغضب والخوف يعبث بعقولهن، والصخب يسود الصالة... وحدها حمامة غمرتها الغبطة!

إحداهن نظرت بحذر إلى نافذة حمّام في الدور الرابع وعرفت نوع البندقية. قالت لمن بجوارها وهي تضع كفيها على أذنيها وتشير نحو النافذة، ووجهها ينقبض عند سماع صوت الرصاص:

- تلك بندقية قنص، أنا أعرفها، أخي لديه مثلها يزيّن بها ديوان البيت. هو مثل الملاك، لكن حين يتحدث عن الحروب التي خاضها في عدن وتعز يخوفني. قال لي ذات مرة إنه في المعركة لا يرى الإنسان إنسانًا!

- نعم، الكثير من البشر يعيش بثلاث شخصيات، إحداها تظهر عند الغضب.
- أنتِ متعلمة، ماذا درستِ؟!
- أنا خريجة علم نفس.
- خلاص يا أستاذة، سأسمعك بعد الحرب!
- نعم، الحرب تجرد الإنسان من إنسانيته!
- يوه! يوه! يا لطيف!

حاولت إحداهن أن تحصي القذائف التي تصيب العمارة المجاورة، وهي تسد أذنيها براحتيها... وصلت في العد حتى القذيفة العاشرة، وحين تصيب إحداها سطح الصالة، تتساقط قطع الإسمنت على رؤوسهن، والذعر فيهن يبحث عن أي مكان آمن. تعثرت امرأة بالجثة فأرعبها الوجه المنفوخ، فراحت تصيح، لترعب الأخريات أكثر. خُيّل للبعض أنها أصيبت، وأن دورهن سيأتي!

***

تنقّل إقبال في الصالة، تتبعه وديعة كظلّه، وهو يصوّر الخوف في وجوه النسوة، يرى أن الشيطان أعطاه فرصة لم يحلم بمثلها يومًا. كان يشكره حين يجد مشهدًا يثير الشفقة. الأطفال صاروا يرتجفون ويختبئون خلف النسوة عند صوت دوي الانفجارات، ومنهم من يذوي من الجوع. أحدهم لوث سرواله من الإسهال دون أن يعرف. الفاقدة بصرها لا تدري في أي اتجاه تذهب. وقعت على الأرض ثلاث مرات وهي تحاول الوصول إلى الجدار. سارت بجانبه ودموعها تصرخ:

- يا رانيا! أين أنت؟!

البعض كن يتعثرن بها. واصطدمت بسامية فقالت هذه بغضب:

- ثلّي (صلّي) على النبي يا أختي، ثاحبتك (صاحبتك) رانيا في الحمام، يمكن أثابها (أصابها) الإثهال (الإسهال)!

لكن الفاقدة بصرها لم تعد تشعر بما يجري حولها بقدر ما يجري داخلها من معركة تطحنها من الداخل! ستصير حبيسة منزلها تستجدي لقمتها كالرضيع. كانت ترى لو أنها تخرج إلى الموت لتختصر الحياة، سيرحمها الموت على يدي قناص.

توقفت القذائف وبدأت زخات الرصاص من أطقم العربات المصفحة، المتمركزة بالقرب من باب العمارة المجاورة للصالة، يفصل بينهما جدار الحوش، وتمركز الجنود في الدور الأخير، تظهر أفواه بنادقهم من نوافذ هشم زجاجها، ورشاش مضاد للطيران على سطح العمارة. شاهدن كيف يقذفون قذائف (آر بي جي) من تلك النوافذ. وحين أصابت قذيفة إحدى النوافذ ودمرت واجهة الغرفة هتفن:

- انتهوا! ماتوا! طاروا أشلاءً!

وحين تخرس بندقية أحدهم يرجحن أن صاحبها مات.

سقطت قذيفة على سطح الصالة وأحدثت ثقبًا صغيرًا في السقف، ثم فوجئن بسقوط سائل أحمر على النسوة اللاتي كن تحت الفتحة مباشرة؛ فصرخ الخوف:

- دم! دم!

ونظرن إلى الأعلى والسائل يسيح في أرضية الصالة. تراجعن إلى الخلف، وسقط بعضهن على نسرين، وهي تصيح:

- من مات؟! كم ماتوا؟! يا ساتر يا الله!

وراحت تتحسس نفسها لتتأكد من سلامتها وأنها لم تصب بشظية. إحداهن راحت تشرح لها ما يحدث. أما التي فقدت صوتها فكان تعبير عينيها مُخيفًا، الأمر الذي أخاف حتى الفضوليات.

دونت الصحفية: وابل من القذائف على صالة العرس، والدم إلى الرُّكب في الصالة.

أكثرهن حظًا تلك المرأة الفاقدة السمع، لا تحس برعد الموت، وهُنّ يعتقدنها شجاعة. عرفن أن الجنود المتمترسين في سطح الصالة تمزّق اثنان منهم أشلاءً، وجُرح الآخرون، وإلى ذلك أصيب خزان المياه في السطح بشظية وكوّن بركة من ماء ودم.

بجوار المرأة التي فقدت صوتها جلست امرأة ثرثارة، راحت تحدثها وهي تحرك رأسها، عن مأساة الحرب على النساء: حدثتها عن جارتها الأرملة التي مات زوجها في الحرب السادسة في صعدة، وكيف أن خوفها من أن تغري زوجها بالزواج منها؛ فهي مازالت صغيرة وجميلة وليس لديها غير طفل واحد، ألغت صداقتها ولم تعد ترحّب بها في بيتها، وإذا طلبت شيئًا لمطبخها لا تعطيها، رغم أن زوجها يأمرها بمساعدتها، وهذا ما كان يغيظها أكثر. وما زاد معاناة الأرملة أيضًا سقوط راتب زوجها من كشوفات الشهداء، ولم يعد إلا بعد متابعة طويلة، وأن عيون الرجال في الحارة تخترقها كالرصاص... قامت المرأة التي فقدت صوتها ضجرًا منها،

كيف تحدثها بقصص كهذه في ظرف عصيب كهذا؟! وذهبت مع اللواتي ينظفن الصالة من الدم على أرضية الصالة. كانت تشير عليهن بطريقتها في التنظيف، مستخدمة الإشارة وتعبيرات الوجه والإيماءات المضحكة.

قالت فتاة الفلسفة:

- لا تسخرن منها! كنا في الماضي نتحدث بالإشارة، حين لم تكن لدينا لغة بعد!

اشتد غضب امرأة بجوارها فقالت تخاطب صديقتها:

- هذه المرأة تشتي تقول إن البشر كانوا قرودًا! الله يلعنها!

ردت عليها الأخرى غاضبة:

- ما رأيك؟! نضرب أبوها؟! نبطحها بين هذا الدم؟!

ثم قالت لفتاة الفلسفة:

- شوفي يا أختي، لا تتفلسفيش في الدين! آدم خُلق من طين وهو يتكلم، علّمه الله الأسماء كلها، غلب الملائكة!

وهمست لها:

- شنمسح بك هذا الوسخ يا داروينية!

صمتت فتاة الفلسفة واستمرت في تنظيف الماء الممزوج بالدم الذي مازال يتسرب من الثقب الذي أحدثته القذيفة مما اضطر النسوة للتعاون في رفع الفرش المبلولة وحملها بصعوبة إلى خارج الصالة. كان الحمل ثقيلًا،

فانزلقت إحداهن تحت أحد الفرش، وراحت تلعن وتصيح وقد اصطبغ وجهها بالدم ثم راحت تتقيأ.

***

الثالثة عصرا:

عادت رانيا تبحث عن الفاقدة بصرها. وحين وجدتها كانت تشكو من وجع ظهرها، نتيجة سقوط امرأة عليها، ورجتها ألا تبتعد عنها. أخذتها إلى الحمام، والنسوة يتزاحمن هناك؛ فقد عاود بعضهن الإسهال رغم خلو بطونهن من الطعام. البعض كن يضعن أيديهن على بطونهن ويستعجلن اللواتي في الداخل الخروج. البعض تشتم، وأخرى تُحذّر من الإسراف في الماء. قالت امرأة عدنية:

- في أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦م في عدن، حوصرنا في بيوتنا شهرين، أوقدنا أبواب منازلنا للطبخ، وهم يتقاتلون فوق رؤوسنا!

ردت عليها إحداهن:

- كنتم في عدن تقتلون الشخص بالبطاقة الشخصية! هيّا نخرج نضربهم بالجزمات حقنا وما وقع وقع!

ضحكت امرأة وهي تقبض على بطنها:

- اسكتي يا عُنيترة، خلينا ندخل الحمام أولًا، وبعدين نخرج لهم؛ لكن كوني في المُقدمة!

فوجئت اللواتي داخل الحمامات بانقطاع المياه، ورحن يهتفن:

- ما فيش ماااء! يا نسوان!

عادت امرأة مسرعة إلى النساء تصيح:

- مَن لديها مناديل؟! مناديل بسرعة يا نسوان! سبع نساء داخل الحمامات، حصار من الخارج وحصار من الداخل، وحصار من داخل الداخل! الله ينتقم منهم! يا الله سترك لو طال الحصار!

رحن يفتش حقائبهن. بعضهن أعطت بعض المناديل بحذر، والبعض أخفين ما لديهن. أخريات أسرعن إلى القمامة يسترجعن ما ألقين هناك من مناديل، وصارت المناديل سلعة محتكرة.

الفاقدة سمعها اندهشت وهي ترى قلق اللواتي يعدن من الحمامات؛ تحريك الأفواه، تقليب الأيدي، العيون تكاد تتحدث... سألت امرأة بجانبها:

- لماذا النسوان يرجعن من الحمامات غاضبات؟! هل مات أحد في الحمامات؟!

ردت الأخرى بأن من الأفضل لها ألا تسمع شيئًا في هذه البلاد، ثم أشارت لها تخبرها بعدم وجود ماء في الحمام واحتمال أن يعشن حياة البقر.

دخلت الفاقدة بصرها الحمام والمناديل بيدها. وأثناء تحسسها للمرحاض سقط المناديل من يدها، وتبللت بالماء وذابت. لم تجرؤ أن تخبر صديقتها، الواقفة خلف الباب. مسحت بما وجدت من مناديل مستخدمة وملوثة، ثم راحت تمسح يدها بالجدار؛ لكن الرائحة مازلت في يدها. نهضت من على المرحاض، ولم يكن الباب مغلقًا، فصديقتها

تقف هناك. سألت صديقتها منديلًا وهي تشم رائحة يدها الكريهة، فلم تجد مطلبها، وحين وصلت إلى بداية الصالة افتعلت السقوط، وأخذت تمسح يدها في الفرش. قامت تسحب رجليها وتقبض على يد رانيا بقوة. جلست في مكانها المعتاد، وقد استبد بها الجوع. قالت لرانيا:

- أنا جائعة! ابحثي لي عن لُقمة!

ذهبت رانيا والحزن يموج في عينيها تسألهن طعامًا. همس لها طفل:

- يا عمة، هناك أكل في القمامة، أنا وجدت قطعة دجاج وأخبرت أصحابي!

ذهبت رانيا إلى قُمامة الصالة المُبعثرة؛ أي قِطط جياع بعثرتها؟! وجدت كسرًا من خبز يابس. لملمتها، وعادت تقول لصديقتها الفاقدة بصرها:

- هذا ما وجدته، لا غير!

وراحت تحدث نفسها "هذا سيف يجبر الإنسان أن يقبّل يد الشيطان من أجل لقمة عيش! ماذا لو منعوا بيع القمح لبلادنا. كيف نكون أحرارًا ولُقمة عيشنا بيد غيرنا". أكلت الفاقدة بصرها بيد مرتجفة، وتشرب من ماء الحمام، ولم تتأفف من رائحة يدها!

***

شاهد إقبال ما يفعله الحصار بالنسوة، وهن يتنازعن جُرعة ماء ملوث من ماء الحمامات، وجوهًا كانت بالأمس مشرقة يزهون كفراشات في مرج أخضر... جلس بالقُرب من الفاقدة بصرها يتنصت على النسوة،

ونعجته وديعة ملتصقة به. إحداهن كانت تنصح الفاقدة بصرها بالذهاب إلى مستشفى خاص، لِما أصيبت به المستشفيات الحكومية من شلل. وراحت أخرى تؤكد كلام الأولى وتتحدث عن جارتها... لم يعدن يكترثن بالقتال الدائر في الجوار. قالت إحداهن:

- لمّا عرفتُ أن جارتي ستلد وحيدة في المنزل، وقد أوصانا بها زوجها قبل ذهابه إلى الجبهة بعد أن أوقفوا صرف راتبه، اتصلتُ بزوجي، فأسعفها إلى مستشفى حكومي. وهناك، لم يستقبلها أحد حتى ندفع الرسوم. جلست جارتي تتألم من المخاض في ممر المستشفى، بينما عاد زوجي ليحضر النقود. جاءها المخاض في ممر المستشفى، قبل أن يرجع زوجي. صرختُ، فحضرت مولّدة محترمة وساعدتها على الولادة في مكانها ذاك، ثم حضرت بعض الممرضات الطيبات. كان بعض المارة يضحك، والبعض الآخر يشتم ويسب المستشفى... قامت جارتي، وحملناها عائدين بهما، هي ووليدتها. والمضحك أن حارس البوابة كان يريد إذن خروج الوالدة، ولم يصدق أنها ولدت في ممر المستشفى!

ضحكت النسوة رغم المعاناة والخوف. وفي أثناء ذلك، كانت هناك نسوة يتذمرن من الضحك في هذا الظرف الصعب، بينما راحت إحدى المتحدثات تقول:

- نعم، لم يعد في الكثير من الأطباء إنسانية ولا رحمة...

وراحت تروي لهن قصة مماثلة. كانت الفاقدة بصرها تنصت باهتمام، ثم قالت:

- تُرى كم سيطلبون لعلاج عينيّ؟! المفروض أن يعالجوني مجانًا؛ أنا فقدت بصري بسبب الحرب!

قالت أخرى:

- يا أختي، كم سيعوضون؟! الموتى بالآلاف، والجرحى كذلك، ومئات المنازل مدمرة، والآمال محطمة، حتى العقول غيّروها!

أخرى تحدثت عن ازدياد عدد المتسولين في المساجد والطرقات، وعن عدم قدرة البنوك على صرف المبالغ المودعة لديها. قالت إحداهن إنها تعيش على صدقات أخيها المغترب في الخارج، أما المعونة التي توزعها المنظمات الدولية فلم تحصل على شيء منها، ويجدونها في الأسواق معروضة للبيع... كان إقبال منصتًا، ثم راح يحدث وديعة عن سلطة إبليس على البشر، وأنه سيد الدهاء والرغبة في هذا العالم. سألها عن رأيها في الانضمام إلى مَجْمعهم. قال لها:

- نحن لنا سلطتنا وانتصاراتنا حول العالم، وحققنا الكثير من رغباتنا في أزمنة عدة. ستنالين شرفًا كبيرًا لو قَبلتِ أن تكوني معنا!

وأدهشها بقوله:

أترين هذه الحرب؟! إنها حبكتنا، هي إحدى وسائل تغيير الفكر والمعتقد، إذ لا يستطيع دُهاة العالم تغيير ذلك بالوسائل السلمية. وكلما طال أمد الحرب اقتربنا من الهدف أكثر واختصرنا الزمن. قدورنا تظل على النار عشرات السنين، لتسوية طبخة واحدة. قد يموت الطاهي قبل أن ينهي

طبخته، فيأتي آخر ليكملها. بعضنا يحمل الأهداف في جيناته ويورثها لأجيال من بعده! لهذا نحن الأعلون في هذا العالم!

❊ ❊ ❊

المحاكمة

السبت، الرابعة عصرًا:

لم تعد النسوة يكترثن بأصوات الرصاص والقذائف؛ لكن الفاقدة سمعها كان يعتريها الخوف حين ترى انقباض وجوه النسوة، أو يضعن أكفهن على آذانهن.

إحداهن سألت الفاقدة بصرها:

- هل أنتِ متزوجة أو مخطوبة؟

ردت وعيناها تفيضان بالدموع:

- أظن خطيبي سينسحب بهدوء! هو شاب مهذب، وفقدانه خسارة. لو كنتُ رجلًا ما بكيت كثيرًا على فقدان بصري؛ الرجل الأعمى يجد شريكة حياته بسهولة، أما زواج المرأة العمياء فإنه حلم بعيد التحقق. من يرضى أن يتزوج عمياء؟! فهي نفسها بحاجة إلى من يرعاها! (مسحت خدها وأنفها) لو أنني متُ ولا فقدت بصري!

حاولت المرأة التخفيف عنها:

- ستتعالجين، أو ستعتادين على العمى، وستجدين زوجًا حتى ولو من العُميان أنفسهم، لأنهم يخشون أن ترفضهم المبصرات، ويرون النساء العُمي سلوى لهم، يشاركنهم أحزانهم!

- لكن مثل هذين الزوجين بحاجة إلى شخص يقف بجانبهما على الدوام! كيف سيرعيان أطفالهما؟! إنها حياة تعيسة، تعيسة! لا أستطيع أن أتخيل أنني سأعيش عمياء طوال حياتي!

كانت الفاقدة سمعها تشاهد حزن الفاقدة بصرها وتحرك يدها بيأس؛ فقالت لها رافعة صوتها:

- يا نسرين، ممكن إن شاء الله يعود بصرك فجأة إذا انتهت الحرب! هذه الحرب أعمت حتى عقولنا!

تعجبت الفاقدة سمعها من ضحك النسوة حولها أثناء حديثها. سألتهن لماذا يضحكن؟! لم يدرين كيف يخبرنها أن صوتها مرتفع؛ فكتبت لها امرأة أن صوتها مرتفع؛ لكن الفاقدة سمعها لا تعرف القراءة، فراحت المرأة تفتح فمها واسعًا ككلب ينبح، مما أضحك النسوة أكثر. ضحكهن أزعج العروس، التي كانت تجلس القرفصاء، وتضم ركبتيها إلى صدرها. لامت نفسها لأنها ترى أنها السبب فيما حدث لأهلها وللمدعوات. حدثت نفسها: "يا لهُ من عُرس تحت خط السُّعار، والمدعوات يرقصن على صفيح ساخن، وخُطى الشيطان تهز الأفئدة! ركب الأضداد سفينة هوجاء ووحّدهم المصير المشترك، والمدينة سارت بخطى عمياء عبر طريق ضبابية على حافة الرعونة، والبصيرة لم يعد لها وجود، والشيطان يهتف: الموت للموتى! ولم يعد العقل يميز الخيط الواهي بين السلم والحرب. أضحى السلم حربًا والحرب سلمًا! رفضتُ تغيير الصالة التي سيقام فيها العرس، حيث هذه القصور الرئاسية من حولها الحصون المنيعة، التي يراها جدّي حصونًا منيعة ويفخر بها. نعم، كنتُ أراها

كذلك. منطقة تحرسها ديناصورات عصرية تقذف حممها أرجاء المدينة، يقودها جُند بلا رؤوس! وقف ذلك الجبروت في وجه الصدور العارية المطالبة بالتغيير؛ ليتعلقوا بآخر عربة قطار التغيير السريع، والريح تؤرجحهم كأنهم خرق بالية! هذا ما حدث للسيل الغاضب أثناء تدفقه في شوارع المنطقة الجنوبية للمدينة، حيث القصور الرئاسية، يطالب بالتغيير أثناء ثورة التغيير، فبراير ٢٠١١، لكن تلك السيول كانت تُجبر على العودة إلى الوراء، لم يُسمح لها أن تجوب شوارع هذه المنطقة المحرّمة! هكذا كنتُ أرى أن عرسي سيكون في أمان، ولو أحرقوا باقي المدينة!"

أخذت تقضم أظافرها، التي كانت قد اعتنت بها كثيرًا، وهي تحدث نفسها بأنها هي التي ألحت على أمها أن تقنع أباها، حين أراد تأجيل العرس. كان على حق حين قال إن هناك تدخلات خارجية وأن الشيوخ لن يحلّوا مشكلة هم شركاء فيها. كان يعرف ذلك جيدًا؛ لكنه لا يستطيع أن يرفض طلب الأم... تذكرت "مجيب المِقدام" في الجامعة وهو يصف اليمن بأنها أفغانستان أخرى، بتضاريسها وقبائلها، وحروبها التي لا تنطفئ. شبّه القات بالأفيون الأفغاني، وراحت هي تؤيد كلامه أمام زملائهما... هي الآن تتخيل أنها تسمع صخب أسواق القات والتزاحم حول بائعيه، ورغم أن أضرار هذه النبتة معروفة للجميع! تراهم يبحثون عن السعادة ولو باختصار الحياة!

كانت نهلة تخشى أن يطير عصفورها، الذي مازال يُغرّد خارج القفص الذهبي منذ خطبتها؛ فهي تكبره بسنتين، تعرّفت عليه في الجامعة وشغفها حبًّا، لوسامته. هي بنت الحسب والنسب والجاه، فما ضرّها لو اقتنت فتىً أصغر منها، كما تقتني قطعة أثرية رائعة؟! كانت تود أن تقضي

شهر العسل في إسبانيا؛ فقد وعدته عند الخطوبة بهذا، وراح هو يحلم بزيارة تلك البلاد التي عاش فيها ابن رُشد وابن طفيل وابن حزم ومحيي الدين ابن عربي... والأجداد! يتخيلهم يمشون في طرقات غرناطة، قرطبة، إشبيلية، وبالذات برشلونة، التي يشجع فريقها المحبوب لديه، ويحلم بزيارة ناديه المُفضّل وهو يتساءل: "ترى هل سيقدّرون حُبي لهم؟! أم سيرونني إرهابيًا؟!" ذلك الفريق الذي سهر الليالي الطوال ليشاهد مبارياته، ونوافذ منزلهم تهتز مع كل غارة جوية ينفذها الطيران أثناء قصف "النهدين" و"عطان"... كان ينسى نفسه أثناء مشاهدة المباريات، فلا يلتفت للقصف!

لم توافق نهلة على تأجيل موعد الزفاف؛ فهي ترى كأس الحب بجانبها ولا تستطيع تناولها منذ سنتين، وتخاف أن يسبقها إليها غيرها، فقد كانت تسمع الحديث عن "مجيب المِقدام" كاللُبان يفيض عسلًا في أفواه صديقاتها. هو في سنة أولى آداب، قسم لغة إنجليزية، وهي في سنة ثالثة في القسم نفسه. يلتقيان في نور الحرم الجامعي. كانت تتفاخر بوسامته أمام صديقاتها، وهو يتفاخر بأنها حفيدة شيخ له صولاته وجولاته، شنبه (شاربه) يجر وزارة بكاملها. وقد حدث أن شيخًا سحب بنكًا بكامله وأخفاه.

لولا إصرار نهلة وأمها على إقامة العرس في موعده ٢٨ نوفمبر ٢٠١٧ لتأجل حتى يهدأ سعار الموت في مدينة تُنكب بين الحين والآخر من أجل سلطان الحكم. كانت حجة أم العروس قوية:

- يا خلق الله اسمعوني! كم من عرس أقيم أثناء الحرب منذ فبراير ٢٠١١م؟! وقد وزعنا كروت الدعوة منذ شهر، وليس هناك وقت للتأجيل!

سيل ذكريات نهلة أوقفه صوت مدوٍ لقذيفة هاون وقعت في الشارع المجاور. تكورت نهلة كالعصفور حول نفسها، ثم نفضت ريشها وقامت تمشي في الصالة وتحدّث نفسها، تحرك كفيها دون شعور، ككثير من الناس في طرقات هذا البلد، وتسريحة شعرها قد انفرط عقدها بشكل مضحك. لم تنتبه لما تفعله، وأخذت تلتمس من النسوة أن يسامحنها، وهن يخبرنها:

- لا عليك يا عروسة، هذا هو حال بلادنا منذ القِدم!

لكنها لم تخفف من جلد ذاتها، لا تزال ترى أن الله عاقبها في يوم عرسها. أثقلت كاهل أسرتها بطلبات للعرس، مما اضطر أباها أن ينفق على العرس أكثر بكثير مما أعطاه العريس.

***

ظهرت العرافة فجأة في الصالة. لم يدر أحد أين كانت مختفية. تحلّقت النسوة حولها، يسألنها عن مصيرهن في الصالة، ومن سيملك الرقاب في بلاد تأكل نفسها. قالت:

- الله وحده يعلم مصير العباد! وما أنا إلا قارئة حظ، أرجم بالغيب، قد أصيب وقد أخيب! أما مصير البلد في هذا الزمان فهو بيد الشيوخ أولًا، يعرفون متى يشعلون الحرب ومتى يطفئونها، والمُسيّر ما له خيرة، لا تخيفهم الدماء، يرون الجنة في الدُّنيا!

كانت الصومالية تنصت، فاقتربت من العرافة تسألها:

- ليش اللّف والدوران؟! قولي لهن إنهم سيتحاربون عشرين سنة، مثل الصومال!

وإذا بامرأة تقول وقد استبد بها الغضب:

- أخبرينا عن مصيرنا هنا لو تستطيعين!

ألقت العرافة ودعها، وأخذت تحدّق فيها بدهشة، مما أخاف مَن حولها، ثم قالت:

- أرى نارًا تخرج من تحت الأرض، تسعى كثعبان مخيف، يظللها سحاب أسود كثيف (وكفاها على جانبي رأسها) يوقدها شيطان خبيث، ويطفئها رجل محبٌّ شريف! (حدّقت في الودع أكثر) نارًا تشبُّ، ونساء تهبُّ، ودابة فيها تدبّ. تتعفن الروح، وتكثر القروح. تضيع الحقيقة، والنفاق طريقة، والكذب سليقة. سيوف الماضي تلمع، والعقول تخضع ولا تخضع. تتعدد القيود، وتكثر الحدود...

بعض النسوة سخرن من كلامها، والبعض أخافهن كلام العرافة، التي ما إن أكملت حتى جمعت الودع وغادرت، وهن يراقبنها، وهي تتجه إلى غرفة الحارس.

استلقت العروس على جنبها، وتوسدت بكاءها. لم تلُم أباها أو أخاها لعدم حضورهما لإخراجها. لم تكن تدري أنهما قد اقتيدا في عربة عسكرية إلى جهة مجهولة، بسبب شتمهما ولعنهما للعسكر الذين منعوهما من التحرك بسيارتهما نحو صالة حي السعادة، وأودعوهما بين حشد كبير

من السجناء... فجأة سُمع دوي قذيفة في حوش الصالة، وتلتها أخرى! هرع الفضول كعادته إلى النوافذ، ثم هتفت إحداهن:

- حرييييييق! مولّد الكهرباء يحرق!

تسرب البترول إلى الساحة، والنار تشتعل فيه، يتجه كثعبان ناري نحو باب الصالة، وتجمعت هناك بركة، وظللت الساحة سحابة سوداء من الدخان. إحداهن أخذتها الرأفة بقط يجري هنا وهناك وهو يحترق، ثم رمى نفسه في النار المشتعلة. سألت امرأة من بجوارها:

- تقولين يا أختي هل أراد الهر أن يموت بسرعة؟! أم أنه أصيب بالعمى؟! يا الله سترك!

إحداهن لطمت الحيرة خدها قائلة:

- الحمد لله، هذا تفسير ما قالته العرافة، وقد كنت أظن أن صنعاء سيحرقها مجانين السلطة كما أحرق نيرون روما حتى لا يحكمها غيره!

وراحت ترجح أن العرافة سليلة كُهان يمنيين قدماء، كسطيح وقس بن ساعدة وكاهنة عمرو مزيقيا... كانت تنبؤاتهم لا تخطئ.

عج الدخان الخانق في الصالة، وقد تسرب إليها عبر نوافذها المكسورة، وتكاتفت النسوة كنمل يستنفر للخطر، لسد النوافذ بعباءاتهن وبعض الكراتين... لكن الهواء أتى كما يشتهي الشيطان، وأصيب البعض بنوبة سعال حادة.

كانت الطبيبة تتنقل بينهن، وهي تسعل وتستنشق الهواء من خلال ثوبها وقد اتخذت منه كمامة، توصي النسوة بما يجب عليهن فعله، إلى أن هدأت نوبة السعال الشديدة في القاعة، ولا يزال البعض يستخدمن أثوابهن كمراوح لإبعاد الدخان، وهناك من بللّت سروالها، ومَن ضرطت أثناء نوبة السعال... كانت إحداهن تسعل بشدة إلى أن تقيأت، فصاحت:

- سيقتلوننا!

ومنهن من استنشقن الهواء عبر مناديل مُبللة بالماء، كما كان شباب ثورة ١١ فبراير٢٠١١م يفعلون أثناء قذفهم بمسيلات الدموع.

امرأة حامل في شهرها الثامن، أحست بتقلصات شديدة أسفل بطنها، بعد السعال الشديد. قالت لصديقتها:

- لعنة الله عليهم! سألد في هذه الصالة!

بعض النسوة كن يهرعن من مكان إلى آخر؛ يساعدن المتضررات كثيرًا والمُسنات. وراحت العروس ترش والدتها بالماء، على وجهها وصدرها. وهرعت أختها وبعض النسوة إلى الحمام يجلبن الماء. أما إقبال ووديعة فاختفيا عن الأنظار في أحد الحمامات.

المرأة التي فقدت سمعها، تعاني فقط من الجوع ومن الدخان الذي كاد يخنق الكل. يحسدنها أنها لم تسمع ما حولها من خراب. ومما زاد سكينتها أنها كانت ترفض الاقتراب من النوافذ؛ حتى لا ترى مشاهد الموت والحرائق، ولو أنها كانت تشاهد حربًا في عيون النسوة المُختلفات حول مسائل المصالح الدنيوية. رأى البعض أن الصمم نعمة في بعض

الأحيان، فلا شيء مبهج ليُسمع في هذا العالم. كان آخر شيء سمعته الفاقدة سمعها هو الانفجار الذي دوى في الحوش، وصاحبه طنين في أذنيها، ولم تسمع بعده شيئًا.

***

الخامسة مساءً:

بعد بحث عن خزان الماء الأرضي، وجدنه تحت ممر دخول الصالة. تجمّعن حوله لكسر القفل، وكُلٌّ تدلي برأيها. إحداهن أخذت حجرًا وراحت تضرب به القفل وهي تشتم. أخرى أحضرت قضيبًا حديديًا ووضعته في حلقة القفل، واجتمعت خمس نساء لكسره، فسقطن جميعًا على مؤخراتهن، ورحن يضحكن. رآهن إقبال مستلقيات على الأرض، وبجانبه وديعة المفتونة به. ذهب ليساعدهن، فهو أيضًا يشعر بالعطش. وبحركة خبير كسر القفل. صفّقن له، واقتربت منه إحداهن قبضت على ساعده، وقالت:

- ما شاء الله! ما شاء الله! ساعدها قوي كالرجال!

لم ينتبه إقبال لكلام المرأة المعجبة بقوته. ضحكت وديعة وقالت:

- صديقتي تلعب رياضة! لا تصيبيها بالعين!

ووضعت يدها على عانتها دون إرادتها.

أحضرن إبريقًا وربطنه بـ"مقرمة"[٢٠] وأنزلنه. وجدن الماء ضحلًا في قاع الخزان. رشحنه بقطعة قماش قطنية وتجرعنه بتقزز. أخبرتهن زينب

(٢٠) غطاء تغطي به المرأة رأسها.

الصومالية أن بخورها ينظف الماء؛ فباعت منه، وطحنته امرأة وذرّتْه في الخزان، وفعلًا نظّف الماء؛ لكنهن لوثنه مرة أخرى بالتربة المترسبة في قاع الخزان، فشتمتهن زينب. صار الخزان مزارًا للنسوة، كسرب نمل اكتشف مخزن حبوب. الكل يريد أن يغترف منه. يتسابقن للحصول على القناني الفارغة في القمامة.

أغمضت العروس عينيها وشربت من الماء. تخيلت نفسها أمام مجيب المِقدام، وهو يسقيها عصير التفاح الطازج، والنساء يصفّقن لهما وهي تختال كالطاووس، وتسمع التهاني: "زواج سعيد يا نهلة! بالرفاء والبنين! مبروك...". قطعت عليها خيالها امرأة دَفعتها مسرعة نحو القمامة تبحث عن مناديل لاستخدامها عند الحاجة في الحمام. اللواتي نفدت عليهن المناديل لم يجدن حلاّ غير الستائر والكنبات والوسائد. البعض نتفت قطعًا من إسفنج الفرش الذي تنام عليه ووضعته سرًا في حقيبتها وبين ثدييها. هتفت الصومالية:

- يا نسوان! إن شاء الله تقف الحرب قبل أن تتحولن إلى قوارض!

وضحكن حينما هتفت سامية:

- الله يلعن الكُرثي (الكرسي)! بيقتلونا بدون ثلاح (سلاح)!

هكذا كانت سامية عند الخوف، تنكر الحرب، وحين تخبت نارها تدعو: "الله ينثر (ينصر) الزعيم!".

دونت الصحفية في تليفونها: سحابة دخان تخنق العشرات في صالة النساء المحاصرة، وهن في الرمق الأخير من الموت عطشًا.

السادسة مساءً:

هدأت الحرب قليلًا في الشوارع المجاورة، وخرست أصوات الموت المنطلقة من أفواه البنادق في العمارة الملاصقة للصالة. فرحت النسوة ورحن يتساءلن:

- هل انتهت الحرب؟!
- مَن انتصر؟!
- هل سنخرج الآن؟! سنموت جوعًا هنا يا خلق الله!

صاحت امرأة غاضبة بهيئة جنونية وشعرها منفوش كمظلّة:

- هؤلاء ليسوا من خلق الله! هؤلاء من خَلق الشيطان!

نهضت أخرى تشتمها قائلة:

- مو[٢١]؟! كفرتِ يا مَرَة[٢٢]؟! الشيطان لا يخلق شيئًا!

فإذا بالمرأة الغاضبة تقفز عليها كذئبة، وتمسك شعرها وتقول لها:

- أنا كافرة يا بنت الكلب؟! من أعطاك حق أن تكفريني؟! ليس من حقك لا أنت ولا غيرك تكفير أحد! أنتم مع العدوان! أنتم صفقتم لسلمان يا دواعش!

أيدتها بعض النسوة، وأخريات وقفن مع الأخرى، فانقسمت الصالة. صاحت امرأة غاضبة تبدو على وشك السقوط:

(٢١) ماذا؟

(٢٢) امرأة.

- نحن نموت جوعًا، وهم لا يهتمون إلا بالحكم!

ثم سقطت مغشيًا عليها. خافت اللواتي حولها، وظنن أنها ماتت. تزاحمن حولها يحدقن بفضول إلى فمها ليشاهدن خروج الروح من الفم حسب الاعتقاد. خرجت الشرطية مسرعة وغاضبة، تتبعها ثلاث نسوة كالورود الذابلة. إحداهن ذات الثديين الكبيرين. شكت للجنود جوع النسوة وأنهن يشربن ما تبقى من ماء الخزان الضحل، وسينفد قريبًا، وليس لديهن حتى شمعة واحدة للإضاءة... توسّلت التواصل مع قادتهم لهدنة بسيطة ريثما يعدن إلى بيوتهن. اقترب منها أحدهم، وكان ينظر إلى صدرها ببلاهة ويلحس شفتيه والرغبة في عينيه. أمرتهن الشرطية أن يعدن؛ لكنهن لم يسمعن كلامها، وغطّين صدورهن ووجوههن... سألهن جندي كان يحشو فمه بالقات من الكيس الممتلئ أمامه:

- كم عددكن؟
- لقد قلنا لكم أمس إننا خمسمائة.
- واه! خمسمائة في الصالة منذ يومين بدون طعام؟! والله حرااام عليهم يعاملون النساء الرقيقات بهذه القسوة! سأتصل بالقادة ليعطوكن الطعام، ولا يهمك يا حلوة، ولك أنتِ وجبة خاصة. أنت تمثلين الحكومة في الصالة.

أدركت الشرطية مغزى كلامه، فسألته:

- أين زملاؤك الذين كانوا هنا بالأمس؟!
- قُتلوا، والبعض جُرح... نحن سنعتني بكن أفضل منهم!

خرجت العرافة من غرفة الجنود. همست للشرطية بأنها قرأت لهم الحظ ونعمت بالدفء وبوجبة دسمة. شتمتها الشرطية وعادت غاضبة من خيبة الأمل المفقود، وأمرت مَن كُنّ معها ألا يخبرن الأخريات بما سمعن. عادت الشرطية والنسوة ينتظرنها:

- ها! ماذا قالوا؟! هل سيعطوننا الطعام والماء كما يعطونهم؟!
- متى سنعود إلى منازلنا؟!

قالت لهن:

- قالوا سيعطوننا الطعام والماء صباحًا، وستقف الحرب غدًا؛ فالأمم المتحدة تدخّلت لحل الصراع.

***

ما إن عادت الشرطية ورفيقاتها النسوة إلى أماكنهن، راحت كل واحدة من رفيقاتها تهمس للأخرى عمّا كان يلمح إليه الجندي، وأنه لم يعدهن بالطعام ولم يخبرهن بوقف الحرب... انتشر الخبر في كل أرجاء الصالة، كأنما تناقله بلوتوث!

غضبت امرأة مما قاله الجندي الفاسق، ورفعت حذاءها عاليًا وأخذت تشتم الجنود جميعًا، وهتفت بالنساء حمل أحذيتهن وأن يرمين بها وجوههم. تجمع حولها حشد من الثائرات: كيف يأكلن بأثدائهن؟! لو يمتن جوعًا... لكن الشرطية صباح أخبرتهن أن ما سمعنه عن الجندي مجرد إشاعة، وألا ينسقن خلف أي إشاعة كالقطيع!

كانت الصحفية قد دونت، وأرسلت للصحيفة، عن إصابة ثلاث نساء في صالة العرس المحاصرة نتيجة التدافع بجوار باب خزّان المياه.

عادت النسوة للثرثرة فيما بينهن، مرة يشتمن العسكر، وأخرى يلعنّ الشيطان الذي يلعب بقادة العرب فوق رقعة شطرنج، ويلعنّ أنفسهن أحيانًا لسعيهن وراء حفلات الأعراس... إحداهن اعترضت على العزوف عن حضور صالات الأفراح، فليس في المدينة حدائق، ولا مسارح، ولا أماكن للتنزه... أفضل حديقة في المدينة تتحول إلى نفايات القمامة في الإجازات والأعياد، وأن المرء لا يعود إلى منزله إلا وقد كساه الغبار... كانت هناك نساء يحكين أوضاع أسرهن. حينها كانت الشرطية صباح تجلس بجوار امرأة في الخمسين من العمر، راحت تشكو حال زوجها المقاول الذي خسر الملايين نتيجة الحرب... ثم سألت صباح: لمَ اختارت أن تكون شُرطية؟ فراحت هذه تحكي قصتها:

- لم أجد مِهنة غيرها. يوم أن فتحوا باب قبول النساء للتجنيد في شمال الوطن فرحتُ كثيرا. التحقتُ بكليّة الشرطة، تعلّمت فيها سنة ونصف وعملت في سجن النساء. بعد سنتين تزوجتُ عسكريًا في معسكر المشاة واستأجرنا بيتًا صغيرًا على سفح جبل عطان وأنجبتُ خمسة أطفال. جُرِح زوجي في الحرب التي تسببت له بإعاقة دائمة، ولم يعد يستلم راتبه بالكامل كالمرابطين في جبهات القتال، ثم توقف راتبي بسبب الحرب. عرضتُ نفسي على صالات الأعراس، فقُبلِتُ للعمل في تفتيش النساء اللواتي يحضرن حفلات الأعراس في هذه الصالة، وفي الوقت نفسه

استمريت في وظيفتي في سجن النساء صباحًا، وأعود إلى البيت أطبخ وجبة الغداء لأولادي وزوجي المعاق. ثم أذهب سريعًا إلى الصالة وأعود إلى بيتي قبل منتصف الليل وأولادي يترقبون ماذا سأحضر لهم. حتى زوجي يهرع قبلهم يُفتّش ما في الأكياس التي أحضرها. عادة يسألني زوجي عن العُرس: هل هو لذوي القطط السمان؟ حين أقول له: نعم.. يسابق الأطفال، لكنني أترك له حصته في كيس آخر؛ حتى لا يسطو على حِصة أولادي. بعد الإعاقة لم يعد زوجًا بالنسبة لي، لكنه أب أولادي وهم يحبونه وأنا أظهر له حبي وأدرك أنه يرى ذلك عطفًا عليه، وغالب ما يلعن الحرب التي استعملته وأمثاله وقودًا لها. حين يسمع أن أحد أصدقائه قُتل في الحرب يبكي ويقول لي: لقد ارتاح من هذه الدنيا، ليتني قُتلتُ في المعركة ولا بقيت معاقا على الكرسي. لو كانت بُتِرت ساقي أو حتي اليدين ولا هذه الإصابة المُخزية.. أحيانا يبكي ويقول لي إذا كنتِ تريدينني أن أطلّقك سأفعل. لا أستطيع أن أحرمك من حقّك الشرعي.. كنت أنهره وأغضب أمامه حين يقول لي ذلك. كان يصمت حين أقول له: لقد أتيت ثماري في الحياة أولادي سيملؤون عليّ حياتي.. قال لي ذات مرة وهو ينظر من خلال النافذة إلى المدينة: تكذبين، بعض النساء يخلعن أزواجهن ولديهن أطفال منهم؛ ليتزوجن رجالًا آخرين وأنت تعرفين ذلك.. قلت له: ليس كُل بنانك سواء. أشعر أنه لم يقتنع بكلامي، يرفض الطعام أحيانا الذي أقدمه له من الصالة. ويريد أن أترك العمل في الصالات. يقول: يكفينا ما تقدمه المنظمة

الإنسانية من معونة غذائية.. لست أدري ماذا أفعل معه أخاف أن ينتحر يومًا! يكفيني ظلّه في البيت...

بينما صباح تحكي حكايتها كانت حكاية العرافة مع الجُنود كالعلكة في أفواههن. خافت بعضهن من أن يُخبرها الجن، فتسلّطهم عليهن فوق ما يعانين من شياطين البشر. في جانب آخر من الصالة كان لتسبيح سميرة المتبتلة أثر على من حولها. تحدثت عن سلوك الإنسان قائلة:

- لمّا تخلّص الإنسان من حيوانيّته نطق؛ فقيل عنه إنه الحيوان الناطق. ومع مرور الزمن تخلّص منها؛ لكن الحروب تعيدنا إلى حيوانيتنا!

صفّقت لها إحداهن وقالت:

- بركاتك يا مولانا، فيلسوفة أيضًا!

لكن أخرى لم يعجبها حديثها، فراحت تخبر الأخريات:

- هذي المكلف[٢٣] طول الوقت تُسبّح، ثم تقول إن آدم كان حيوانًا!

غضبت إحداهن وهمّت بالذهاب إلى سميرة لتحاججها وتعنفها، لولا أن أوقفتها البعض، وهي تخفي حقدها على سميرة.

***

السابعة مساءً:

غشيت الظُلمة أرجاء الصالة، واتخذت النساء مواضعهن استعدادا للنوم. لديهن القليل من ماء الخزان الأرضي في قنانٍ بلاستيكية صغيرة،

---

[٢٣] المرأة

يرتشفن منها بحذر. تحدثن عن الحرب، وعن العسكر الذين يرونها لُعبة إلكترونية. قالت إحداهن تجلس في وسط الصالة:

- هؤلاء العسكر بلا إنسانية، وإلا كيف يقتل بعضهم بعضا وهم أبناء بلد واحد وكلٌّ يهتف: الله أكبر؟!

احتجت امرأة من الجهة الشمالية للصالة قائلة:

- الخونة والعملاء يستحقون القتل.

ردت الأولى بسخرية:

- وكيف نعرف الخائن من المُخلص؟!
- الذي يقف ضد المستكبرين هو المخلص، يا عفّاشية!
- وأنتم تحاربوا أمريكا هنا في بلادنا؟!

ضجّت الصالة بالضحك، وكانت السخرية ستستمر لولا أن سمعن صراخًا من جهة الحمامات. كان ثمة عراك هناك. أسرعت الفضوليات يتحسسن طريقهن في الظلمة. ارتطمن بأعمدة الصالة، وبأخريات... وجدن خمس نساء يمسكن بإقبال، وإحداهن تقول:

- لمّا كانت هذه القحبة في الحمام سمعنا صوت تليفون عندها، تنصتنا فسمعنا أصواتنا وصوت العروس. انتظرناها حتى خرجت وفتشناها ووجدنا التليفون مخبأ سقط من تحت فوطتها الصحية، وهو بكاميرا. أظنها صورت الحفلة!

ثم رحن يتفرجن على الفيلم بدهشة وغضب:

أحاط الغضب بإقبال كالسوار في المعصم، وشلّ الرعب حركته. أحطن به كنمل أسود:

- أهلًا، أهلًا! ليلتك سعيدة! تعالي معنا سنحتفل بك!

قبضت امرأة بشعره من الخلف، وأخرى بيده، والفتاة التي كانت ترقص بصدر عارٍ راحت تعض كتفه كالمسعورة. وبدأ النمل العسكري يعمل عمله، وهو يتوسل ويقبّل أيديهن ويعتذر لهن بصوت نسائي، ويده اليمنى على منطقته الحساسة خوفًا من أن تمتد إليها يد. أحيانًا يتوسل بصوت مزيج من رجولة وأنوثة:

- يا أخواتي، خذن هذه الأساور حقي!

وراح ينزعها من معصمه الناعم؛ لكن إحداهن قالت له:

خلّي ذهبش لش[٢٤]! الشرف أغلى من الذهب!

إحداهن أخذت سوارًا وفحصتها بالعض عليها، وقالت بغضب:

- يا بنت الشرموطة! هذا فالصو!

أظهر إقبال غضبه، وقال:

- فالصو؟! مُش معقول!

قدنه في الظلام بالقوة إلى جوار أحد الأعمدة. هتفت إحداهن:

- سكوت! سكوت!

(٢٤) في بعض مناطق اليمن يستخدم حرف الشين بدل حرف الكاف للدلالة على المخاطب.

صمت الجميع يصغين للخبر:

- لقد وجدنا في الحمّام هديّة ستفرحن بها كثيرًا! لحم طري، ولو أنه قاسٍ قليلًا، سيكون وجبة دسمة الليلة!

ضحكت إحداهن، وقالت:

- قبحكن الله! ما في الحمّام إلا الخراء!

تعالت الضحكات، وطغت على أزيز الرصاص في الجوار. واستطردت المرأة حديثها:

- سكوت! سكوت! ستعرفن أنّنا وجدنا ألعن من الخراااء! هذه المرأة التي بين أيدينا صورت الحفل خفية، الصدور والسيقان العارية وامرأة تتبول في الحمّام... كيف صورتها هناك؟! قبحها الله! وأيضًا لم تنس هذي القحبة تصوير صدر العروس ومؤخرات النسوة عند الصلاة!

بُهتت وديعة، وصُدمت الفتاة التي تبولت أمام إقبال. كان الجنون يشدهما إلى مصدر الصوت. لم تحس وديعة كم داست من النسوة وتعثرت بهن في الظلمة، وهي تأخذ حذرها من أعمدة الصالة. أما الفتاة الأخرى فوقفت تلطم خديها، ثم مشت تتحسس كالفاقدة بصرها، وأصابت أنفها حين ارتطمت برأس امرأة أخرى. سألت وديعة بصوت عالٍ:

- أين هي؟! دعونِي أمسك بها! أنا لا أراها، رجاءً أفسحن لي أقترب منها!

وتحدث نفسها "مُش معقول! يا فضيحتي..."، وجلست على الأرض منهارة. أما الفتاة فعادت إلى موقعها تمسح الدم من أنفها وتغطي وجهها، تتخيل النسوة يحدقن بها، ونسيت أن الظلام يخيم على الصالة.

***

تهافت الكثير منهن نحو مصدر الصوت، يتحسسن طريقهن كالعُمي، يمددن أيديهن إلى الأمام كقرون استشعار. يسحبن أرجلهن في الظلمة ببطء. البعض يسقطن على الأخريات. أحيانًا يشتمن، وتارة يضحكن. صاحت الشرطية:

- قفن في أماكنكن، ستقتلن بعضكن. سنحل هذه المشكلة. الحمد لله أن التليفون مايزال هنا!

وقفن كُلٌّ حيث مرقدها، وهدأ الضجيج. اقتربت الشرطية تتحسس طريقها نحو الحشد المحيط بإقبال. البعض قابضات على شعره وهو يحاول الإفلات، ويده اليمنى ما تزال على عانته. لم تره الشرطية جيدًا. سمعته يتوجع من شد الشعر وهو يقول:

- خلاص التلفون معكن يا أخواتي!

وأخذ يقدّم اعتذاراته بتقبيل الأيادي التي تناوشه من كل جهة. قالت لهن الشرطية:

- سنحاكمها محاكمة عادلة.

صاحت امرأة بغضب:

- هذه المرأة أرادت أن تكشف عوراتنا للعالم، نريد تقطيعها إربًا، سنحشوها بالبقل والبسباس.

ضجت الصالة وتحولت إلى مسرح للضحك. إحداهن قالت للشرطية:

- نحن لا نثق بك!

وقالت أخرى:

- نعم، المرأة صادقة، لا نثق بك، نريد أن نحاكمها نحن. أنت ستساعدينها على الهرب!

ضجت الصالة بالصراخ، وتعالت الاتهامات:

- يجب على المصورة أن تخبرنا مَن أرسلها! سمعنا أن هناك عصابة تخدع الفتيات، تؤكد لهن أن الأفلام التي تؤخذ في غرف النوم ستعرض خارج البلاد فقط. يمكن أن تكون هذه المرأة أحد أفراد تلك العصابة!

تشاورت بعضهن فيما بينهن، ثم هتفت إحداهن:

- وجدنا العقاب المناسب يا نسوان!
- ما هو؟!
- نشكوها إلى العسكر، ثم تحال إلى المحكمة!

صاحت امرأة غاضبة:

- الأفضل أن نؤدبها نحن الآن، نأخذ ثأرنا بأنفسنا. نحرق عانتها.

صاحت امرأة أخرى:

- نحلق شعر رأسها.

ضجت الصالة بالضحك، ولم يعدن يكترثن بأصوات الدمار من حولهن، وهن يهتفن:

- حرق العانة وحلق الرأس...

كان إقبال يتصبب عرقًا ويزداد وجيب قلبه. يحدث نفسه "يا الله! ماذا لو مدت واحدة يدها إلى خصيتي وقبضت عليها؟! يا الله سِترك! سيأكلنني! لماذا فضحتني يا حارث؟!" سمع وسوسة حارث "سأخرجك من هُنا. ثق بي! اصبر قليلًا وقاوم!".

دونت الصحفية في تلفونها: العار، العار، العار. امرأة لديها تليفون مزود بكاميرا، صورت الحفل في صالة العرس المحاصرة. وهي الآن أمام محكمة النساء.. وأرسلت النص ثم راحت تنصت إلى ما سيبهج قلمها أكثر، فقد صاحت المرأة التي تمسك بإقبال من شعره بقوة، وهي تتعجب من قوة غير معهودة لدى النسوة وعضلات اليد المشدودة:

- أنا سأحرق عانتها أولًا! وهتفت امرأة من شمال الصالة:
- أنا سأحلق رأسها، هذه القحبة.

تدخلت أم العروس وصاحت:

- أنا أحق بعقابها، عرفتُها بنت الحرام، كانت تقف أمام ابنتي طول وقت الزفة. ظننتها صديقتها، ورأيتها تقف كثيرًا أمام اللواتي كن يرقصن وتصفق لهن، هذه الواطية!

هتفت ذات الثديين الكبيرين:

- القحبة، كانت ستجني ثروة من ورائنا! أنا سأنتف شعر رأسها ولن أبقي شعرة واحدة منها. لقد غيّرت لي حمالة الصدر بنفسها في الحمام، كانت ستفضحني!

حاول إقبال الهرب، يدعو الله تارة، وتارة يدعو شيطانه. رأى نفسه مستلقيًا على ظهره، والنمل العسكري يقرضه، سيُدفن دون أن يستبقين شيئًا للدود.

تحسست أم العروس طريقها في الظلمة، وكذلك المرأة التي أتت من شمال الصالة، واقتربتا من إقبال. قالت أُم العروس:

- هذي الجاسوسة، الواطية، كانت ستفضح ابنتي للعالم، وستفضح ضيوفنا!

وأخذت تدعو عليها. وذات الثديين كانت أكثر المطالبات بمعاقبة إقبال؛ فقد صور عُري نصفها الأعلى في الحمام. أخبرها وهو يزن ثدييها بيديه أنها يمكن أن تدخل مسابقة الأثداء العالمية. ساعدها في لبس حمالة الصدر الضيقة وأقنعها بلبسها... وجدت نفسها ما تزال بريئة؛ تسمع للغير دون أن تفكر بالعواقب، فمرة تشتم نفسها ومرة "إقبال". ارتطمت مرتين بأعمدة الصالة. أما الفتاة الجميلة التي انفرد بها في الحمام أثناء تناول وجبة البروست وتبوّلت أمامه، فراحت تتخيل نفسها والعالم يشاهدها وهي تتبول!

***

الثامنة مساءً:

حاول إقبال الهرب؛ لكنه لم يستطع. وقفت أمامه ذات الثديين الضخمين تقول له:

- ها أنتِ أيتها المصورة بين أيدينا!

وإذا بوديعة تقف في وجهها، وتقسم بالله أنها هي من ستقوم بحرق شعر عانتها.

ارتعب إقبال. حدث نفسه "هل ستفضحني؟!

استدركت وديعة قائلة:

- هذه المرأة يجب أن تتأدب، ونحن سنؤدبها!

ثم تحسست أذنه وقالت له ما أرهبه...! فاستجمع قوته للإفلات من قبضتهن، وأثناء ما خفّت القبضة الممسكة بشعره عض يدها، وحدث العراك في الظلمة، وسقط التلفون إلى بين الأقدام. صرخت القابضة على شعره:

- لقد أفلتت من يدي، القحبة!

ثم قالت أخرى:

- ها هي بين أيدينا مرة أخرى!

وفي الوقت نفسه كانت إحداهن تصيح:

- سأخرس فمها حتى لا تأخذكن بها رحمة.

هتفت أخرى:

- اكتمِي أنفاسها!
- اخنقيها، بنت الشرموطة!

إحداهن كمّمت الفم وأحكمت قبضتها بقوة. لا جدوى من أية مقاومة! عشر نساء شداد حول الجسد الملقى على الأرض. امرأة جاءت من شمال الصالة، ووقفت أمام الجسد المُحاط بالنسوة. قالت وهي تتحسس العانة في الظلمة:

- ما شاء الله! غابة!

بدأت بالولاعة بحرق العانة وصاحت:

- أحرقت جزءًا منها.

هتفت إحداهن:

- خليها صلعاء! نظفيها من الوسخ!

ضجت الصالة بالضحك، كأنها حفلة ضحك. دونت الصحفية: صالة العرس المحاصرة تقيم محكمة النتف العالمي الأولى بالحرق، ضد المتهمة بتصوير العرس... كانت الصحفية مبتهجة بسبقها الصحفي الفريد. تحدث نفسها "ترى كم ازداد رصيدك في البنك يا نبيلة؟!"

استغربت وديعة، فقالت لنفسها بصوت مسموع: لماذا لم تصرّح المرأة بأنه رجل؟! هرعت في الظلمة لتتأكد. دست يدها. اندهشت مما وجدت، وراح جنونها يدس أصابعها أكثر، لتتأكد أن الضحية امرأة. كادت تصيح أن المرأة بريئة، وأن الذي صوّر عري النسوة رجل؛ لكنها لم

تجرؤ. عادت إلى مكانها باكية، وتفكر بالبحث عن الهاتف لتطحنه بأسنانها. حدثت نفسها "عليك اللعنة يا إقبال أنت والحرب! عشرات السنين ورحى الحرب تطحن الشباب! لم أكن ساقطة... إنها غلطة قاتلة! لماذا يا إلهي تركت الشيطان يعبث بعبادك؟! لماذا؟! وها هو إقبال كان يريد أن أنضم إلى حزبه اللعين..."

كانت الصالة تضج بالضحك الهستيري، في وقت حرب وبكاء ودمار! بلغت القهقهات مسامع الجنود! اقترب بعضهم يتلصص من النافذة. أحدهم يحمل منظارًا ليليًا لخطف الأرواح. ارتقى على كتفي صاحبه ووقف على قدميه، لتفتح الدهشة فمه، وتسيل لعابه على وجه صاحبه. كان ضجيج النسوة عاليًا وهن يهتفن:

- نظفيها بالكي، القحبة، لا تبقي شعرة!
- تستحق القتل!
- نعم، القتل بالأحذية!
- هتكت ستر المحصنات. لتكشفه أمام العالم.

كاد الجندي أن يسقط أرضًا وهو يشاهد ما جعله ينسى الحرب تمامًا. قال لأصحابه وهو يضحك ببلاهة وفمه مفتوح كالتمساح:

- انقلاب في الصالة!

سأله الذي تحته متألمًا:

- ماذا رأيت يا تافه؟! أخبرنا، بسرعة!

قال جندي آخر:

- مستحيييل.
- انزل يا راجح، دعنا نشاهد!
- يحرقن شعر عانة الشرطية!
- انزل يا حقير، أوجعت كتفي بحذائك! دعني أشاهد! لماذا هي صامتة؟!
- والله ما أدري! النساء يمسكنها، وامرأة تلجم فمها!
- يا تافه انزل، هات المنظار دعنا نشاهد!

قال راجح مذهولًا:

- يا علي، سيقتلن الشرطية، يكاد يغمى عليها!
- مش معقول! لا بد أن ننقذها!

طرقوا باب الصالة بشدة. ردت إحداهن:

- ما تشتوا(٢٥) بهذا الوقت؟! ارجعوا إلى موقعكم يا طراطير، روحوا اقتلوا بعضكم!

صاح أحدهم:

- أنتن مجانين، ستقتلن الشرطية!
- هذه امرأة صورت عورتنا، يرضيكم تفضحنا أمام العالم؟! يكفي فضائحكم أنتم! هذه تستحق القتل! سنسلمها لكم بعد أن نعاقبها! لكن أنتم كيف عرفتم؟! تتجسسوا علينا، على عورات النساء؟!

---

(٢٥) تريدون؟!

حملن الجسد المنهار إلى البوابة، وتأكدن بكشاف الضوء لدى العسكر أن المرأة ما هي إلا الشرطية "صباح"!

قالت إحداهن تتأسف لها:

- الظلام دامس.. سامحينا!

ردت الشرطية لاهثة الأنفاس:

- أشتي... أعرف المرأة... التي كمّمت فمي... كانت ستقتلني!

اعتذرت لها أم العروس وراحت تقبّل رأسها، ثم هتفت بالأخريات:

- أين المرأة التي صورت الحفل؟! سنجعلها تلف خراء الحمامات! لم يعد فيها مكان نظيف. ابحثن عنها بينكن!

وصاحت وديعة:

- أين التلفون؟!

وتلتها الفتاة التي صوَّرها إقبال وهي تتبول في الحمام، ثم ذات الثديين الضخمين.

وقف الجنود عند باب الصالة، وهن يبحثن في الظلمة كالعُميان. إحداهن طلبت المنظار الليلي للبحث عن إقبال لكن الجندي لم يفرط بعهدته. بعضهن يرتطمن بأعمدة الصالة فيلعن الحرب والمصورة والكهرباء... ومن تلعن أمريكا و"إسرائيل"، ومن تلعن نفسها... وحين تصطدم واحدة بأخرى تسألان بعضهما:

- من أنتِ؟!

يستفدن أحيانًا من لمعة سريعة لضوء شيطاني، من انفجار قذيفة في الخارج. لم يبق للتعارف بينهن إلا الصوت، يتذكرن صوت إقبال المبحوح وهو يهتف للراقصات...

أحد الجنود لمح امرأة تخرج خلسة من الصالة. مشى خلفها. ثم خرجت الشرطية قائلة لنفسها "فليهلكن جوعًا وعطشًا! ويذهبن إلى الجحيم". كانت كُل واحدة تنادي قريبتها أو صديقتها، فلا تصل إليها إلا بمشقة. اقترحت إحداهن أن ينمن، كُلٌّ في موقعها، وفي الصباح يبحثن عن المصورة والتلفون؛ لكنهن لم يتوقفن؛ لاسيما اللواتي ظهرن أثناء الحفل بصدور وظهور وسيقان عارية؛ كلٌّ تتخيل زوجها أو قريبها يشاهدها وهي ترقص، وتفعل ما لم تفعله في البيت. إحداهن أثارت ضجة كبيرة قائلة:

- يا نسوان، يجب أن نحرس بوابة الصالة حتى لا تخرج المصورة! يمكن يكون التلفون معها.

اختارت أم العروس خمس نساء ليحرسن البوابة، وتطوعت ذات الثديين الضخمين، ووديعة.

***

الحادية عشرة ليلًا:

حاولن أن ينمن ويهدئن الأطفال، والجوع يعبث بالأحشاء. تجاورن فشعرن بالدفء. روين عطشهن بما تبقى من ماء الخزان الملوث. بعضهن حسدن الشرطية على حصولها على غطاء يدفئها وطعام شهي وكذلك القات لدى العسكر. حشت بعضهن آذانهن بقطع من مناديل ورقية؛ ليخففن من سمع أصوات الرصاص. تمكنت بعضهن من النوم. ومن منعهن الجوع

وأصوات القذائف والرصاص، كن يسمعن أيضًا شخيرًا هنا وضرطة هناك بين الحين والآخر. وفي منتصف الليل سمعن الفاقدة بصرها تقول ببهجة:

- عاد نظري يا رانيا، عاد لي نظري!
- الحمد لله. كان مجرد حالة نفسية، كما قالت الدكتورة.

نهضت رانيا وسألتها بحيرة:

- لكن الظلام دامس يا نسرين، فكيف ترين؟!
- ماذا تقولين؟! ألسنا عند الفجر؟! أرى أمامي شفقًا أحمر، جنودا يمشون في حوش الصالة!
- نحن في منتصف الليل يا نسرين!

أخرى سألت:

- أمسيتِ خُفاشًا يا نسرين؟!

رحن يتبادلن الحديث، وكلٌّ تخبر التي بجوارها أن نسرين الفاقدة بصرها عاد بصرها! سرى الخبر في الصالة، وأيقظت الفضوليات النائمات بجوارهن، ثم سمعن رانيا تبكي وتخبرها بأنها ستتعالج بعد أن يخرجن من هذا الكابوس المخضب بالدم!

اللواتي يُعانين من مرض السكري أو المسالك البولية يكثرن الذهاب إلى الحمامات. البعض يقضين حاجتهن بجانب الحمامات وممراته وأمام الأبواب، فازداد البراز المكوم هناك. بعد أن سُدت المراحيض بالمناديل الورقية والإسفنج، وتكتل البراز بجانب المراحيض، لم تعد

الكثير من النسوة يطقن دخول الحمامات، خصوصًا في الليل، إذ لا يرين أين تطأ أقدامهن، فصارت ممرات الحمامات مسرحًا للبول والبراز. إحدى المصابات بالسكري ارتطمت بأحد أعمدة الصالة وجرحت رأسها. ظل الجرح ينزف حتى الصباح. اتخذت لها مكانًا لتنام بالقرب من الممر المؤدي إلى الحمامات، عند أقدام بعض النسوة؛ لتذهب بين فينة وأخرى إلى الحمام. تمنت لو أنها كالرجال، تستطيع أن تتبول في قارورة وترميها في الشارع، فوق الجنود ليبتعدوا من جوار الصالة!

عند أذان الفجر، اهتزت النوافذ إثر غارة جوية على جبل "عطان"، الذي سقطت عليه مئات الصواريخ منذ أن شن التحالف غاراته على اليمن في ٢٦ مارس ٢٠١٥م، مستهدفة في "عطان" مخازن لترسانة عسكرية. سمعن دويًا قويًا، فاستوين جالسات، كلٌّ تظن أن الصالة قد قُصفت مثلما قُصفت الصالة الكبرى وصالات أعراس أخرى. ضجت البعض بالعويل. إحداهن تهتف:

- رجلي... يدي...

ولم تعد تحس بالجانب الأيسر من جسدها، وخُيّل إليها أنها ترى الأشلاء ملء الصالة! "صرخت" إحداهن:

- الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لـ "إسرائيل"!

أخريات بأنفاس متسارعة يلعنّ ويشتمن المتناحرين على السلطة:

- الله يلعنهم! كلاب! فجعونا! حرب في الداخل وأخرى من الخارج!

راحت سامية تشيد بعلي صالح قائلة:

- الزعيم بينتثر (سينتصر) ويعيدهم إلى جبال مران!

وجرفهن الحديث نحو حرق عانة صباح، ورحن في نوبة ضحك، والخوف لا يزال يسود الصالة.

تسللت خمس نساء من شمال الصالة إلى وسطها، وضربن سامية أمام الكل، ولم تتجرأ واحدة على التدخل وتخليصها منهن. كانت تصرخ وهي تنال الضرب:

- ثينتثر (سينتصر) الزعيم!

❊ ❊ ❊

فتاة تؤذن لصلاة الفجر

لم تستطع النسوة العودة إلى النوم، ماعدا الفاقدة سمعها، فلم تغادر نومها أساسًا. قالت إحداهن:

- ليتني صنجا[٢٦] مثلها؛ ما نسمع هذه الأيام إلا الأحزان!
- والله صحيح يا أختي، ما عاد في خبر يُفرح!

هتفت سميرة:

- عليكن بالدعاء والصلاة!
- يئسنا من الدعاء!
- لا تيئسن من رحمة الله، حرام! هذا عقاب الله في الدنيا؛ ليطهرنا من أخطائنا. استغفرن ربكن، ادعينه ليفرّج كربتكن!

أخذت الصالة كلها تلهج بالدعاء والتسبيح.. كان صوتهن رتيبًا رهيبًا كأنهن يقرعن باب السماوات.

سألت امرأة مُسنة:

- من منكن منشدة؟
- أنا يا خالة.
- قومي أذّني يا بنتي، عسى الله يسمع من النساء أفضل من الرجال!
- لم أسمع أن النساء يؤذّنّ يا خالة!

٢٦صماء

- يا بنتي، الرجال يؤذنون منذ قرون، وأصواتهم لا ترتفع من فوق رؤوسهم! هُم سبب الحروب والخراب طوال الزمان. ونحن الثكالى والأرامل نلدهم ليتقاتلوا! قومي أذّني يا بنتي، عسى الله يسمع أذان النساء ويفرّج همّنا من ظُلم الرجال... هم السبب في بلاء هذا العالم!

ارتفع صوت الفتاة خاشعًا وسط ذهول النسوة، وتوقف تسبيح الرصاص. إحداهن شاهدت حمامًا يطير فوق سماء المدينة. إحداهن أقسمت أنها رأت نورًا ينبثق من السماء كالشمس. أخرى رأت السماء تمطر ورودًا، وتنسمت عطرها... اندهشت الشرطية والعرافة، وكذلك إقبال، واللواتي كن في غرفة حراسة الصالة في الحوش، حيث ينعمن بالدفء والطعام اللذيذ والشراب... صلّت الشرطية صباح الفجر. وراح إقبال يشكر شيطانه الذي أنقذه من غضب النساء. كان صوت المؤذنة يدق أجراس القلب: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل... كررت الفتاة "حيّ على خير العمل" سبع مرات... تلك الكلمات التي تتلقاها آذان صماء، كخطبة الجمعة التي تنثر في مهب الريح في يوم عاصف، أضحت عادة كالصلاة، وليست عبادة!

لم تجد النسوة ترابًا للتيمم، فرحن يتحسسن طريقهن إلى جدران الصالة وأعمدتها للتيمم. حدث تزاحم بجوار أحد الأعمدة، وسقطت إحداهن أرضًا، فتعثرت بها أخريات وسقطن أرضًا هن أيضًا، ورحن يشتمن بعضًا والحرب وصاحب الصالة، وبعضهن يشتمن أمريكا... كانت الفاقدة بصرها تنادي:

- أين أنتِ يا رانيا؟! خذي بيدي إلى أقرب عمود!

قادتها إحداهن إلى الجدار، ثم أخذتها لتنتظم معهن في الصف. هذه المرة، أدّت صلاة الفجر وصلاة الخوف كل النساء معًا، نساء شمال الصالة جنوبها ووسطها. فجأة ارتفع صوت ميكروفون أحد المساجد:

- أذان المرأة باطل، باطل؛ صوتها عَورة، فكيف ترفع الأذان؟! هذا لم تأتِ به شريعتنا. كيف تعتلي امرأة منابر المساجد؟! هذا حرام، حراااام!

وراح يتلو آيات من القرآن يزكّي بها كلامه.

أرسلت الصحفية برسالتها: أول امرأة في التاريخ ترفع الأذان، لصلاة الفجر، في صالة العرس المحاصرة. يا للثورة! يا للثورة!.

***

الأحد، الخامسة والنصف صباحًا:

دخل شعاع من الضوء، وهبّت معه نسمة هواء حملت معها رائحة الجثة إلى كل أرجاء الصالة، بعد أن نزعت امرأة غطاء الجثة وتدفأت به. عاتبتها إحداهن، فردت:

- الحي أبقى من الميت يا أخواتي، ما قدرتُوش أرقد من البرد، وحرام تنام بجانبي امرأة أخرى.

لففن الجثة مرة أخرى بستائر إحدى النوافذ، كالكفن، وهن يرددن:

- لا إله إلا الله، لا دائم إلا الله...

وتزاحمت النساء على حملها وهن يرددن الشهادتين. كان الكثير منهن ينظرن إلى الجنازة برهبة وخوف أن يواجهن المصير نفسه في الصالة. كان العسكر حينها يقفون حذرين خلف المتاريس الخرسانية، مرتدين معاطف صوفية طويلة وخوذات حديدية، وضعت النساء الجثة في الشارع. هتف بهن أحدهم:

- عُدن بسرعة إلى الصالة، أسرعن!

سقطت إحداهن أرضًا، فأردن مساعدتها على النهوض، فصرخ بهن جندي آخر:

- ادخلن بسرعة، دعنها فقد ماتت!

حملهن الخوف على جناح السرعة. رحن يخبرن الأخريات بارتباك وحزن، وكُلٌّ منهن تتحدث برعب هستيري حول موت المرأة... إحداهن كانت أنفاسها تتسارع، أقسمت أن العسكر ليسوا بشرًا، ثم راحت تبكي وتقول:

- سمعت الرصاصة... مرت بجوار أذني... كان بيني وبين الموت بنانة واحدة.

تفشى الخوف في الصالة كالطاعون، كُلٌّ تسأل عن هوية القتيلة، وبأي ذنب قُتلت؟! لم يعدن يشعرن بالجوع، ولم يفكرن بإقبال، وارتعش البعض كأن الصقيع نزل فجأة، وعمّ الضجيج، خمسمائة فم تتحدث معًا! ماتت امرأتان. لا طعام، لا شراب لا كهرباء. رائحة الجثة مازالت تطغى.

عمياء لا تكف عن البكاء، وأخرى تبكي رضيعها الذي تركته في البيت. البعض خائفات من غضب أزواجهن، قد يطلّقونهن، والأسباب عديدة... كيف تنام امرأة خارج بيت الزوجية؛ قد يحدث...! أم العروس مازالت تفتش عن إقبال دون جدوى. أصبحت مشوشة الفكر من هول ما ترى وتسمع. ذات الثديين الضخمين ووديعة تفتشان عن الهاتف. وديعة تتمنى أن يخر عليهن السقف. والفتاة التي أكلت وجبة البروست في الحمام انطوت على ذاتها، لا تكلم أحدًا. الفاقدة سمعها ترى في الوجوه ملامح الحزن، وتتساءل عمّا جرى. حين عرفت أنّ هناك امرأة قُتلت بدت أكثر خوفًا. أرادت أن تهمس في أذن تلك الواقفة جوارها. هتفت بقوة فصفعتها المرأة دون إرادة، ثم راحت تعتذر لها.

أردْن أن يحرقن بخورًا؛ لكن لم يجدن علبة كبريت. أسرعت زينب الصومالية تبحث عن كبريت لتبيع بخورها، فلم تجد. حتى ولّاعات البعض نفد غازها. لم تجرؤ إحداهن على الخروج لطلب كبريت من الجنود. كن يبحثن عن نسمة عطرة تخفف رائحة الجثة.

***

الأحد، السادسة صباحًا.

امرأة أخذ غضبها يحث الأخريات على الخروج من الصالة. أيّدتها زينب الصومالية وراحت تحدثهن بصوت مرتفع عن مشاركة المرأة الصومالية في الحرب... تقدمت الصماء إلى جوارها والزبَد يتطاير منه فمها وتحرك يديها بعصبية. سألتها عن غضبها؟! وحين عرفت زينب أن التي تسألها صماء، أخذت تشير لها بمغادرة الصالة؛ لكنها لم تفهم الإشارة،

وعجزت زينب عن إيضاح ما تريده بالإشارة، وأخيرًا أشارت غاضبة إلى قدميها وقد اتسعت عيناها، ففهمت الصماء أنها تشتمها بأنها حذاء؛ فصفعتها، واشتبكتا بالأيدي، وعضّت الصماء مؤخرة زينب الدسمة، وأسرعت النسوة لفض الاشتباك. وبعد أن عرفت الصماء ما قصدته زينب ذهبت إليها لتعتذر. ردت الأخيرة قائلة: نحن في الصومال ما نعض هكذا، هذا عيب عندنا، والله أنتم ستتحاربون خمسين سنة.. ضجت الصالة بالضحك ونسين الحرب الدائرة في الجوار، حتى أن رائحة الجثة تلاشت من أنوفهن.

كتبت الصحفية: الجوع، الجوع، الجوع. امرأة تتضور جوعًا قضمت مؤخرة امرأة صومالية في صالة العُرس المحاصرة.

المرأة التي تود مغادرة الصالة أخذت حقيبتها مُبدية شجاعتها، واتجهت نحو البوابة. لحقت بها زينب الصومالية وهي ترى أنياب الجوع بارزة. سارتا معًا في الشارع رغم تحذير العسكر من تهورهما. تزاحمت النسوة عند النوافذ يراقبن ما سيجري لهما، يحصين الثواني وقلوبهن توجف خوفًا. سقطت المرأة على وجهها فصاحت النسوة بصوت واحد:

- ماتت المرأة!

ذُهلت النسوة وازددن رعبًا، وصمتن لحظة، كأن على رؤوسهن الطير، ثم رحن يذكرن الله ويلعنّ الحرب التي لا تفرق بين البشر. استوت المُصابة في الشارع جالسة، تمسك برجلها اليمنى وتصيح من الألم. هتفت النسوة:

- الحمد لله، لم تمت! الحمد لله...

عادت زينب مهرولة رغم إعاقتها، ومؤخرتها تهتز خلفها، وارتمت خلف أحد المتاريس. قالت للجندي بغضب:

- سأقتل أبوه، الكلب... والله لأقتله! هات بندقيتك! أنا رأيت ذلك القناص الجبان. نحن ما نقتل النساء المسالمات.

شتمت العسكر لأنهم لم يعطوها بندقية، لكنها لم ترجع إلى الصالة، وبقيت في غرفة الحارس، تتحسس مكان العضة أمامه. وجدت هناك الشرطية صباح، وإقبال يتلمظ شفتيه يصلح أحمر الشفاه. قالت له بغضب:

- أنتِ امرأة لا تستحي! ممكن تكسبي فلوس مثلنا، نبيع بخور، لُبان... أنتِ امرأة شيطانة. واللهِ، لو يدرين النساء انكِ هنا ليخرجن يأكلنكِ!

ثم كشفت مكان العضة في مؤخرتها، وقالت:

- الجوع جعلهن مجانين!

تزاحمت النساء على النوافذ يطالعن مشهد المرأة المصابة. إحدى الفضوليات دفعها فضولها لحشر نفسها بين أرجل المشاهدات. حبَت على أطرافها لتصل إلى النافذة. فجأة داست كفها امرأة من ذوات العيار الثقيل، فعضت الفضولية ساق المرأة، التي صاحت:

- أيش يا مرة؟! خلاص، جعلك الجوع مجنونة؟! ما دخلتك بين أرجلنا؟! ما تشتي تشوفي فينا...؟!

امتزج الضحك بالحزن واللعن.

كانت الصحفية تراقب سلوك النسوة في الصالة. رأت أن العض بدأ يتكرر. كتبت عن الحالة الثانية وأرسلت برسالة نصية: أنقذوا صالة العُرس المحاصرة من الجوعِ... بعضهن تحولن إلى آكلات لحوم بشر.

***

اندست الصحفية بالقوة بين النسوة لتصل إلى النافذة وتراقب مشهد المرأة المصابة، وراحت تشجعها على النهوض... أسرع بعضهن إلى بوابة الحوش، يطلبن من العسكر بحذر أن يسعفوا المصابة ويعيدوها إلى الصالة. رد أحدهم:

- هذا بالضبط ما يريده القناص. يريدنا أن نسعى لإنقاذها؛ لكي يصطادنا.

إحداهن سألتهم:

- مَن انتصر؟
- لا أحد، المعركة مستمرة!
- متى سنستطيع المغادرة؟ سنموت جوعًا، رجاءً!
- لا ندري! عودي بسرعة إلى الداخل يا هواة الصالات؛ القناصة يراقبوننا!

قررن أن ينقذن المصابة، فخرجت ست نساء. حملنها كشاة ذبيحة، وخيط من الدم ينقش مأساتها في الشارع. سرن بجوار العسكر يرمينهم بنظرات ساخرة. بعضهن تحدثن عن تهور المصابة؛ لكن سامية أشادت قائلة:

- هذى المرة أشجع مننا كلنا، لازم نتاعدها!

مزقت الطبيبة سروال المصابة وشاهدت إصابةً بليغةً فوق الركبة. ربطتها بقطعة قماش لتوقف النزيف. أخبرتهن بأن المرأة ستموت إذا لم تنقل إلى المستشفى حالًا. خرجت إحداهن تستجدي العسكر، لكن الرعب أعادها جريًا مع انطلاق حمم الموت من طقم عسكري مجاور. أسرع الفضول جريًا كعادته إلى النوافذ الشرقية، لمشاهدة الجنود يطلقون الرصاص من نوافذ العمارة المُطلة على الصالة.

***

في هذا الوقت كان الرجال، في الجانب الآخر من العرس، يشكون تجدد الاشتباكات قرب صالتهم. لم يعانوا من شحة المياه، لكن لم يجتهد إلا القليل منهم لرفعه بالدلو من الخزان الأرضي، في ظل انقطاع التيار الكهربائي. سدت المراحيض وتكوم البراز بجانبها. أحدهم خرج من الحمام يتذمر. رأى دمًا مساحًا في أرضية الحمام، فقال بسخرية:

- هؤلاء المصابون بالبواسير لماذا يتعاطون القات؟! مؤخراتهم لا تحتمل الإمساك!

ضحك أحد المستمعين وقال:

- لن يتوقفوا عن تعاطي القات ولو ساح دمهم كله للمجاري!

أمضوا الليل في العتمة، ليس لدى البعض غير ولّاعات يذهبون إلى الحمام بها، يتحدثون عن السياسة والحرب التي اتسعت دائرتها في البلاد كلها، وعن مشاكلهم الشخصية...

ثلاثة منهم تمنطقوا الشجاعة أمام الآخرين، ورفضوا أوامر الجنود المرابطين في الشارع، وأسرعوا حذرين كلصوص بمغادرة الصالة. تحدث المدعوون عن شجاعتهم في زمن الموت، والبعض رآه تهورًا... بعد عشر دقائق عاد اثنان يلهثان. أخبرا الجميع، والخوف ينطق في أعينهما، بما شاهدا في الشارع الخلفي:

- جثث، دبابة محروقة بجانبها جثة جندي، سيارات محترقة، مطعم المُعلم مدمر بالكامل، عمارة نوارة احترق جزء منها... معركة حامية الوطيس تدور حول بيت الزعيم!

أحدهم قاطعهما قائلا:

- هو ثعلب كبير، لن يقدروا عليه، سيهرب من الأنفاق. والله ما يظهر إلا خارج المدينة!

استأنفا حديثهما:

- شاهدنا في الجهة المقابلة دكانًا كُسر بابه، فأسرع صاحبنا الثالث وحاول عبور الشارع بسرعة؛ لكنه أصيب! جرينا نحوه لإنقاذه فرشقونا بالرصاص، وعدنا إلى مكاننا بأعجوبة!

أحدهما استطرد قائلا:

- أغاظني صاحبي؛ فقد سبقني، وراح يضحك وأنا أجري في خط متعرج مثل مجنون يرقص. كلاب، كلاب... ما يرحموا حتى العُزّل من السلاح (لطم فخذه وزم شفتيه) ما عرفنا أن صاحبنا مات أو أُصيب!

صاح أحد المدعوين:

- يا جماعة إذا لم نبحث عما نأكله سنموت جوعًا!

قال أحدهم واضعا يده على "جنبيته":

- لا، لن نموت موتة الجبناء! سنخرج لهم بالجنابي[٢٧]!

جلس الجميع في حلقات، يفكرون في طريقة للحصول على الطعام والماء من الجوار المحيط بالصالة، حتى ولو بالسطو على ما يجدونه في المنازل والدكاكين. راح كُلٌّ منهم يدلي بفكرة... الذين لا يتعاطون القات كانوا يتضورن جوعًا أكثر من غيرهم. لم يعودوا يحتملون الصيام عن الطعام أكثر من يوم ونصف. وضعوا أيديهم على "جنابيهم" استعدادا للخروج.

***

الأحد، الثامنة صباحًا:

أربع نساء، إحداهن عجوز، خرجن إلى العسكر، يتوسلن ليسعفوا المصابة إلى المستشفى. وعدهن أحدهم بأنه سيبلغ قادته بالأمر. قبّلت العجوز رأسه:

- ها! أني فِدا هذا الرأس يا ابني! المرة شتموت! الأولة ماتت من الخوف، وواحدة قدها صنجاء، وواحدة عمياء، وواحدة مجنونة ضيّعت ذهبها. أني فِدا لك متى شنرجع عند جُهالنا؟!

(٢٧) خناجر يمنية.

مشت خطوتين نحو الصالة ثم عادت تقول:

- أقول لك يا بني، النسوان شيموتين من الجوع! والله كُل واحدة قدها شتأكل الثانية! السِّمان شيأكلن الضعاف!

كان إقبال حينها متخفيًا في غرفة حارس الصالة. يُحدّث نفسه:

كُنتَ يا إقبال ناصر التيس مُفلسًا تبحث عن عمل بعد أن طردوك من عملك في الشركة؛ لعدم قدرتها على دفع رواتب الموظفين. ولولا صديقك ناصر لتحولتَ إلى لص، أو أنك ترتمي إلى حُضن جبهة لتقاتل في صفوفها جبهةً أخرى. لناصر محل لبيع وإصلاح الهواتف المحمولة في شارع القصر. علّمك كيفية إصلاحها بمهارة. تأتي الكثير من الفتيات إلى المحل لإصلاح هواتفهن، لدى المحل أجهزة لاسترجاع ما حُذف من ذاكرة الهاتف.

وجدتّ يا إقبال صورًا وفيديوهات لنساء، لم تتخيّل مثل هذا أن يُسجّل في الهاتف المحمول. اندهشتَ يا إقبال من تلك الفيديوهات وأنت تشاهد مالكة هاتف وهي مع رجل على سرير اللذة وتسمع أصواتهما المثيرة.

أخبرتَ رجلًا تعرفه متحررًا من القيّم عما تجده في الهواتف التي تصلحها، وعرض عليك مبالغ مالية مقابل تلك الصوّر والأفلام وبأن يضمكَ إلى نادي ... وهو الذي سيدفعُ لك قيمة ما تحضره لهم من فيديوهات. أخبرت صاحب المحل ناصر بالأمر فرحب بالفكرة على أن يكون هذا العمل سريًّا للغاية.

وسوس لك الحارث بأن تجبروا الفتيات لتصوروهن مع أناس آخرين، وهددتموهن إذا لم ينفذن طلباتكم بأنكم ستفضحونهن عند أقاربهن

الذين وجدتم أرقام هواتفهم في هواتفهن، وبأنكم سترسلون لهم تلك الفيديوهات وصورهن مع أناس آخرين.

خافت الفتيات ومضين معكم كما تشتهون، شكرتَ الحارث يا إقبال وهو يوسوس لك بخطوة أخرى ليحضرن صديقاتهن إلى بيوت خاصة بكم، وأكدتم لهن بأن الأفلام لن تُعرض داخل البلاد، وكان ذلك النادي يقّدم المال الكثير كلما قدّمتم له أفلامًا لفتيات جميلات وأغريتم الفتيات بالمال. يدفعون لكم مبالغ كبيرة قيمة الأفلام التي فيها اغتصاب.

كسبتم مالًا كثيرًا من بيع تلك الأفلام وأخذكم الطمع لتصوروا حفلات الأعراس خفيّة. ورحب النادي... بالفكرة لمعرفة الوجه الآخر خلف العباءات السوداء.

طوّلت شعرك يا إقبال ورحتَ تدهنُ وجهك بالمرطبات النسائية، وعرض عليك النادي رجالًا مخنثين وهم يمشون ويتحدثون مع الآخرين وتدربّتَ على تلك الحركات.

في أول مرة دخلتَ صالة عرس لأناس بسطاء. ارتديتَ ملابس نسائية فاخرة تبرز على صدركَ حمّالات أثداء متوسطة. لم يكن هناك امرأة تفتش النساء عند باب الصالة. بقيتَ يا إقبال تتتبع أعراس النساء وقد امتلكت هاتفًا بكاميرا حديثة توصل إلى التلفون. لكن فيديو هذا العُرس ستحصل به على مبلغ كبير، يمكن أن تسافر إلى الخارج وتستثمر هناك، وتترك بلادًا يجتاحها الخراب بين وقت وآخر.

***

مجددًا خرج وفد من النساء الكبيرات في السن إلى العسكر يتوسلن طعامًا. قابلتهن الشرطية. توسلن الشرطية بعيون منكسرة أن تخبر الجنود

بحالهن. عاد وفدهن يخبر الأخريات أن هناك امرأة في غرفة الحارس من قبل، قد تكون تلك التي صورتهن. صرخت أم العروس:

- الشرف غالي يا نسوان!

وذهبت مع ثلة من النساء الشداد للتأكد، ترافقهن المرأة ذات الثديين الضخمين، وتحولت وديعة إلى نمرة جائعة. وجدن إقبال ممددا على ظهره، يضع رجلًا على رجل يُحلّق في أحلامه الوردية، غير آبه لهن. قال لهن:

- التلفون ضاع، ضاع في العتمة، لا أعرف من أخذه!

أخبرن العسكر أن يسلّموا إقبال لهن، وتشاجرن معهم. كانت وديعة تنظر إليه نظرة جنونية، وهي تعض على نواجذها. أخبرتهن أنها تريد أن تحدثه على انفراد، يمكن أن يخبرها بمصير الهاتف. كان مرعوبًا من أن تفضحه. انفردت به وديعة، والأخريات يتمنين أن تنجح وساطتها. همست له:

- شوف يا زنوة، لو أعطيتني التلفون لن أفضحك أمامهن!

وأقسمت أنها ستقطع ذكرُه بأسنانها إذا لم يعطها التلفون. فجأة اندفعت ذات الثديين الكبيرين نحوه، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تمسك شعره. أفلت منها ونزع سروالها. خرج العسكر من الغرفة يضحكون، وتركوا النسوة لحل النزاع فيما بينهن. أمسكت ذات الثديين بسرواله، وانكشف أمره للعيان! بُهتن ولم يعرفن كيف يتصرفن!

تسابقت امرأتان إلى الصالة تتنافسان على إعلان الخبر. وصلت إحداهما تلطم خديها. همّت بأن تتحدث ففقدت صوتها، وراحت الأخرى تهتف:

- يا فضيحتنا! هُتكت عورتنا أكثر مما تتخيلن! كان بيننا رجل طوال اليومين الماضيين، ونام بيننا! هو اللعين إقبال! تزيّن مثلنا ولبس لباسنا وخدعنا، وهو الآن في غرفة الحراسة عند العسكر، ورفض أن يُسلّمنا التلفون!

لم تتم المرأة حديثها وإذا بالنسوة يتدافعن كقطيع ذئاب مفترسة نحو غرفة الحارس، كُلٌّ تشحذ أسنانها وأظافرها ويشتمن ويلعنّ... سمع إقبال هتافاتهن الغاضبة؛ ففر سريعًا حافيًا، يهطع في الشارع كالمجنون، يقلع ببصره في كل اتجاه، لا يدري أين النجاة، يفضل أن يموت مرة واحدة بالقنص، أو تسحقه قذيفة أو دبابة، ولا يموت بالعض أو بأحذية النساء... يعاتب الشيطان "لماذا خدعتني يا حارث؟! لماذا؟!...". وقف في الشارع خائفًا تلفّه الحيرة، يشعر أن الأرض تميد به. لم يعد يسمع صوت الرصاص، وتشوشت عنده الرؤية، رأى نفسه موثوقًا إلى عمود الموت، وحشد من النسوة يحطن به، يرجمنه بالأحذية، بجوارهن كومة كبيرة من الأحذية، ورأى نفسه يغرق وسط الأحذية، لم يعد يستطيع أن يتنفس.

شاهده البعض يشق قميصه ووجهه شاخص نحو السماء، قبل أن يسقط على الأرض فجأة، سابحًا في بركة من دم. اتسعت عيناه وهو يرى رجالًا يهتفون، وأياديهم الملوثة بالدم تلوح في الهواء، وآخرين يحملون السيوف والحراب! كانت أوسمتهم ونياشينهم تتدلى على صدورهم، تصمُّ أذنيه جلجلتها. إنهم قادة أوقدوا حروبًا في العالم! اندهش وهو يرى بينهم قادة من بني جلدته، فلان... وفلان... راحت أطيافهم تدور حوله ضاحكة. ظل ذلك الحشد يدور أمام عينيه في الهواء، وتوسعت الدائرة فوقه، وازدحم الحشد الضاحك. وفجأة اختفى ذلك الحشد في مخلوق ضخم لا ملامح له،

ثم اتضحت صورته بهيئة بشعة، لم يتخيلها بشر في حياته! نطق إقبال كلمته الأخيرة: "هذا أنتَ أيها الحارث!! كنت تبدو لي جميلًا!". وحين أراد أن يقول: "يا ملعون!" أحس بحلقه موحلا مختنقا، وبولًا في أذنيه وأنفه.

كتبت الصحفية: عار! عار! عار! رجل مغامر تشبّه بالنساء وصوّر العرس ونام بينهن يومين في الصالة المحاصرة!

عادت النساء إلى الصالة أكثرهن سافرات دون خُمُر، والبعض حافيات الأقدام، يعاتبن الشرطية صباح، لماذا لم تكتشفه، واتهمنها بالرشوة، وأنها ساهمت في هتك أعراض النسوة أمام العالم. تذكّرت البعض منهن كيف راقصها إقبال واحتضنها، وهناك العديد مَن قبّلها قبلًا حارة... وارتفعت حُمى العار في الصالة. كانت وديعة أكثرهن خزيًا وألمًا. وبكت ذات الثديين، والفتاة التي تبولت أمامه في الحمام. امرأة واحدة فقط لم تأسف لكل ما جرى، تحلّق كطير كسير خارج السرب. إنها تلك التي فقدت ذهب جارتها، غارقة في بئر حزن عميقة، تسأل من حولها كالتائهة بصوت خافت حزين:

- هل انتهت الحرب؟!

وتحدث نفسها "نعم، انتهت، وستبدأ حربي أنا! كيف أعود بدون الذهب؟! ليت الحرب لم تنتهِ!".

فجأة أخذت تصيح بصوت باكٍ في الصالة:

- يا لصوص! أعدن ذهب جارتي! من أين لي أن أعوضها بثمانية ملايين ريال؟! ربنا يفضحكن أمام العالم! ربنا...!

***

الأحد، الساعة التاسعة صباحا

شاهد أحد الجنود تسلّل عشر نساء إلى العمارة المجاورة، عبر الثغرة التي أحدثتها القذيفة. أخبر الشرطية صباح عن ذلك. تساءلت هي: لماذا يدخلن هناك؟!

أدركتهن مسرعة. وجدتهن يحاولن كسر باب شقة الدور الثاني من العمارة، لم يستطعن كسر القفل. إحداهن جلست تبكي وهي تنظر إلى صباح التي عادت وأحضرت سيخًا حديديًا وكسرن القفل.

توزّعت النسوء بسرعة في المطبخ والغُرف والحمام لم يكن فيه ماء. وجدن في المطبخ: إناء كبيرًا فيه ماء لغسل الأطباق ودقيقًا، وكرتون علب فول فيه ٢٤ علبة، نصف جالون زيت، وكيلو سكر التهمنه سريعًا... قمن بعجن الدقيق على عجلة من الأمر في صحن الغسيل. من حسن الحض أن هناك تنورًا، وأسطوانة غاز. قمن بطهو (الملوج)[٢٨] وأخريات طبخن الفول في (تنكة) صفيح للسمن فارغة وأكثرن من الماء.

أنهين طبخ ما يبقيهن على قيد الحياة، وعدن يجرين واحدة تلو الأخرى إلى الصالة، يحملن خبز الملوج وعلب الفول الفارغة وما وجدنه من الصحون. واثنتان كانتا تحملان تنكة الفول الساخن.

***

المرأة التي تبحث عن الذهب كانت تفتش حقائب النسوة مرة أخرى، وكذلك تحت الفرش، لم تحس بالجوع كالأخريات، لم تعطِ أي

---

[٢٨] نوع من أنواع الرغيف

انتباه للخبر السار الذي أضحك البطون حين هتف فم جائع كان عند باب الصالة: الطعاااااام. التفتن لفتة واحدة إلى باب الصالة، فشاهدن النساء والشرطية صباح يدخلن بوجبة الإفطار!

قابلت وديعة المرأة الباحثة عن الذهب وهي تضع يدها على خدها، قبضت على كتفيها بقوة تهزها وهي تنادي: يا حمامة.. حمامة، أيهما أغلى الشرف أو المال؟! لماذا كل هذا الحزن والجنون! المال يتعوض أمّا الشرف لا..، ثم أسرعت وديعة إلى الحمام لتبكي هناك ولم تتأفف من الرائحة التي تزكم الأنوف.

هتفت إحدى اللواتي استلمن الطعام:

- الصبوح، الفطور، القُراع، البُدا

تهافت الأطفال أولًا وهرعت النسوة أيضًا يحطن حول الكيس الممتلئ بخبز الملوج وتدافعن حوله. سقطت امرأة على طفل فصاح:

- "يا بقرة، رجلي، رجلييي. بقرة..."

هتفت الشرطية:

- أرجو النظام. كُلٌّ تعود إلى موقعها وستحصل كُلٌّ منكن على حصتها. رجاءً عُدن إلى أماكنكن نحن نشعر بمعاناتكن...

قامت مجموعة منهن وأبعدن المتزاحمات بعيون جائعة حول الملوج. بعضهن رجعت وقد اختطفت لقمة، تقضمها.

اختارت الشرطية عشرًا من النسوة ليوزعن معها الطعام بالتساوي. نصف رغيف لكل امرأة. وربع رغيف لكل طفل. احتجت البعض أن ذلك لا يكفي. أكلن في مشهد مضحك باكٍ، إلا العروس لم تأكل، ولم تنتبه للدموع على خدها المبعثر بالمساحيق وظهرت البثور السوداء في وجهها، وفستان العرس مرمي بجانبها.

غرفن الفول الرائق في علب الفول الفارغة والصحون. هتفت إحداهن:

- وزعي بعُلب الماء الفارغة يا صباح، بسرعة.

فسارعت النسوة يبحثن عن العلب في أنحاء الصالة. قطعن العلب البلاستيكية ووزعن فيها الفول كما يوزعن الشاي، لكن العُلب لم تكن كافية فراحت كل بضع نساء يستلمن حصتهن معا ويشربنه رشفة برشفة؛ فقد سبق وأن التهمن الأرغفة قبل ذلك. لم يعُدن يتأففن من سقوط الفول على صدورهن، بل كان البعض منهن تمسحه بأصبعها وتنظفها في الفم.

دونت الصحفية "وجبة إنقاذ من الموت جوعا يعيد إلى النساء المحاصرات إنسانيتهن"

اعتذرت النسوة للشرطية اللواتي أحرقن عانتها؛ فلولا الظلمة ما أخطأن وفعلن بها فعلتهن. ضحكت امرأة معها وقالت: وأنتِ للمه[٢٩] ما تقولي أنا فلانة؟! ردت صباح:

---

[٢٩] لماذا

كانت إحداكن تكمم فمي مثل اللصقة!

***

ابتلت العروق وذهب الظمأ بعد وجبة الإنقاذ. شربن الفول بدلًا من الماء. بعضهن تمسح شفتيها على ساعدها، والبعض بطرف الفستان... عُدن يفكرن بعقولهن، وليس من خلال البطون. ثم راحت بعضهن تبكي مصير أهلها وبيتها... كانت المرضعة تشعر بامتلاء ثدييها، وترى زوجها يلعنها ويلعن الصالات والحرب وأربابه، وهو يهدهد طفلها الباكي من الجوع، ويحلف أنه سيطلقها لو ذهبت مرة أخرى إلى صالة أفراح... ضحكت وهي تحدث نفسها، فهمست امرأة لصديقتها بجوارها:

- المرأة جُنَّت! مسكينة! تبكي رضيعها من قبل أمس!

حاولت المرأة أن تهدئ المرضعة، وسألتها لماذا تضحك وهي في هذا الظرف المبكي؟! قالت المرضعة:

- أضحك على زوجي!
- مَو(٣٠) جرى له؟!
- أراه يطبخ، يمسح، يُبدّل حفاظات الابن، ويعجن ويخبز للأطفال، وهو ليس من عادته أن يرفع حتى كوبًا من الأرض، إذا وجده أمامه يركله ويشتم...
- يستحق التعب، نشتي أزواجنا يعملوا عملنا حتى يوم واحد في الشهر؛ ليعرفوا قيمتنا! بعض الأزواج يروننا جزمات، إذا لم

---

(٣٠) ماذا؟

تكن على مقاس رجله يُبدلها بغيرها! ليت ربي يجعلهم يلدون مرة واحدة في العمر؛ يجرّبوا تعبنا!

وتعالت ضحكتها.

ضحكن من حولها، وسرت الحكاية إلى الجهات الأخرى من الصالة. إحداهن قالت:

- أنا مدرسة، وزوجي في البيت دون شغل، بعد ما أوقفته الشركة التي يعمل فيها عن العمل. يشتي أكله وشربه مني. قلت لنفسي أحسبه كأنه واحد من جُهالي. بعتُ ذهبي لنعيش، وكان هو كل يوم يُخزّن بالقات، وإن لم يجد حق القات يظل في البيت مثل المَرد(٣١)! الله يحرق القات والحكومة التي تسمح بزراعته؛ نهب الأرض وأفقرنا!
- والله إن زوجي طيب، عمره ما قد شتمني. أحيانًا يطبخ وينظف معي البيت. يعاملني كالأميرة.

امرأة بجوار هذه المتحدثة قالت والحسد يتقد في صدرها:

- زوجك هذا مَرَة، يُمكن ما يرقد معش(٣٢)! أنا زوجي في الليل يراني أميرته وفي النهار خادمته. من أين أدّيتِ(٣٣) بهذا الزوج؟!

قالت امرأة أخرى:

(٣١) كائن خرافي يشبه الغوريلا.

(٣٢) معك.

(٣٣) أحضرتِ.

- يا نسوان، لِلمَه أزواجنا ما يحاولوا ينقذونا من هنا؟! ما قصدهم؟! أو هي فرصة يبدلوا غيرنا؟!
- يا سعيدة، هُم محاصرون مثلنا في البيوت! لا ندري ما يحدث في الخارج. الله يكون في عونهم وعوننا!

***

هدأ التقاذف بالموت بين وقود المعركة. جلست بعض النساء بجوار النافذة يشاهدن دخان حرائق الحرب هنا وهناك، وبينهن سميرة اليفرسية، راحت تنظر إلى النجوم. أشارت بتعجب، وقالت:

- انظرن إلى هناك، في الجو! إنني أرى نعشًا يشعُّ نورًا يصعد نحو السماء، ويدًا نورانية تخرج من النعش تشير لنا بالوداع!

بعضهن وصفن ذلك بشطحات المتصوفة. أخريات قلن بأن ذلك هلوسة بصرية، ورثت أخريات حالها. بعد قليل أقبل رجال من الصليب الأحمر، فوجدوا المرأة المصابة قد فارقت الحياة ولا يزال جسدها دافئًا. هرعت اللواتي كن يستمعن إلى سميرة ليتبركن بها لاعتقادهن أنه كشف من عند الله وكرامات يعطيها من يشاء من عباده. قالت إحداهن:

- ما شاء الله! كيف ربي كشف لك ورأيتِ روح المرأة تصعد إلى السماء؟!

تحلّقن حولها كأنها وليّة من الصالحين. وراحت سميرة تدعو دعاء خشعت له القلوب:

- اللّهُمَّ باسمك الأعظم، الأجل الأكرم، الأزل الأقدم، الذي حجبت به بهاءك، وجمعت به سناءك، وعقدت به لواءك، وأضفت إليه

أسماءك، وتعبّد به عبادك الصالحون وإماؤك، أن تكشف عنّا هذا البلاء، النازل من السماء...

امرأة سألت سميرة عن الدعاء الفريد، فردت أنه لصفي الدين أحمد بن علوان، وأنها من قرية يفرس، وأنها أول مرة تحضر عرسًا في المدينة، وأن صديقتها مريم هي التي أحضرتها إلى هنا، أراد الله أن يجعلني أشاهد بلاء الإنسان على نفسه، والكاسيات العاريات في الحفلات.

دونت الصحفية: ثلاث نساء يلقين نحبهن في صالة العرس بسبب الحصار، أين ضمير العالم؟! وأرسلت النص.

***

في الجانب الآخر من العرس كان الرجال في حالة طرب هستيري، لم يجوعوا كالنساء، فقد خرقوا جدار الصالة المؤدي إلى المنزل المجاور، الذي نزح منه أهله ولم يكن فيه مياه. سدوا المراحيض وتراكم البراز كتلًا كبيرة في الحمام. أتوا على كل ما وجدوه: علب فاصوليا، بُن، هيل، حليب، دقيق، سمن... شرب بعضهم زيتًا، قال إنه مصاب بالإمساك. أما السكر فتهافتوا عليه كنمل جائع، وكذلك على "الوَزف"[٣٤]. راحوا يدخلون ويخرجون كسرب نمل. حين وجدوا الطحين أسرع البعض يسفّه قبل عجنه لعمل الخبز، وكان هناك من يلقم فمه لقمًا كبيرة من العجين يقول إنه يتذوقه لا غير. فجأة، سمعوا صياحًا وضوضاء عارمة، فقد خرقوا جدار

---

[٣٤] صغار سمك جاف بطول الأصبح الصغرى

البيت إلى حوش المنزل الخلفي، ومن هناك خرقوا جدارا آخر أخذهم إلى مخزن أغذية كبير. وسّعوا تلك الفتحة. هتف فم جائع:

- لن نجوع يا رفاااق!

دخلوا يجرون كفئران جائعة، يلتهمون أي شيء يؤكل: بسكويت، شوكولاتة، عصير، حلوى طحينية، مكسرات... أحدهم رأى الثلاجة وصاح:

- اللحم يا رجاال!

صفعه أحد أصدقائه خلف الرأس وقال ضاحكا:

- لم نتحول إلى كلاب بعد يا صاحبي، إنه نيئ!

ثم فتحها وانتشرت الرائحة العفنة في المكان، فأعادوا إغلاقها.

سدوا نوافذ الجوع، وجلسوا يضحكون. قال أحدهم وهو يحمد ربه:

- ابتلّت العروق، وذهب الظمأ. اللّهُمَّ لك الحمد يا ربنا!

عادوا إلى الصالة مثقلين بما أخذوه، وبدت البطون منتفخة، والأقدام تنجر ببطء. أحدهم راح يضحك ويقول لمن يقابله:

- اليوم أنا عرفتُ معاناة النساء الحوامل!

وهو يحمل تحت قميصه حوالى خمسة كيلوجرامات من العصير والبسكويت والشوكولاتة... بدا المشهد كسرب نمل يدخل المخزن خماصًا ويعود ثقالًا، مُحمّلًا بما لذّ وطاب من الطعام والشراب، حتى أن الجنود القريبين من الصالة شاركوهم وليمتهم. كانت خشخشة أكياس

البسكويت والشبس والبفك... كسيمفونية الجوع، والضحك يسود القاعة وهم يأكلون بشراهة (الجوع كافر، لا حرية للجوعى) ويتطاير رذاذ البسكويت من أفواههم. أخذ البعض ينظّف لحيته وحول فمه. وبعضهم يسردون الطرائف. لم يعودوا يسمعون أزيز رصاص المتناحرين على كرسي العرش، وهي تتسابق من أجل رفاهية الشعب! أحدهم بكى وهو يلتهم شوكولاتة جالاكسي، حتى سال لعابه حول فمه وتساقط على ثوبه. قال إنه لم يذُق يوما شوكولاتة! ثم عادوا يتحدثون عن الحرب الدائرة. أحدهم تحدث عن عودة الزعيم إلى عرشه، وراح يرقص وهو يرفع جنبيته عاليًا ويدندن:

طرررم! طررررم!
إمام جمهوري ومن قَرَح يقرحْ
الشعب ذا شعبه سنين به يفرحْ
قالوا لهُ: ارحلْ، ما لك هُنا مطرحْ
ردَّ لهم واقسم: واللهِ ما يرحل إلا هوْ
من جاء بها صَرّحْ

ضحك الكثيرون على أرجوزته الراقصة، وهتف البعض:

- يعيش الزعيم!

أما أصحاب "الصرخة" ضد المستكبرين فكان الغيظ يتقمصهم مما يدور في الساحة. أحد المدعوين وقف بجوار منصة العرس وراح يدلي بحديثه:

- المعركة لم تحسم بعد لمن ستدنو له الرقاب، ويمكن أن يطول حصارنا هنا...

لم يتم الرجل حديثه، وإذا بمجموعة منهم تقوم وتتسابق نحو مخزن الأغذية. وجدوا صفائح حلوى طحينية كبيرة، فتهافتوا عليها. أفتى قاضٍ كان معهم:

- أيّها الحفل الكريم، إن كانت الغنيمة ذات قيمة، تصلح للوليمة، والناس في جوع شديد، إنقاذ النفس أولى من التفكير بالأخرى، فعليكم بالتقاسم حسب الشرع، ولو كانت ثمرة من قَرع!

سكبوا الصفائح كومة كبيرة من الحلوى على بساط بلاستيكي، وغرف المُفتي أولا، ثم أخذ كُلٌّ منهم حصته عملًا بالفتوى. مسحوا شواربهم ولحاهم، ولم يجدوا ما يمسحون به أيديهم، فمسح البعض في الجدار والأعمدة، أو طرف ثوبه وفرش الصالة... أحدهم وصف جوعه بأنه رأى المساند أفخاذ ثيران مشوية والفرش رغيفًا، وأنه شم رائحة بروست وشواء بالقُرب من الحمامات. أحدهم سمع المؤذن ينادي "هيّا إلى الطعام!". أضحكهم أحدهم بقوله:

- حلمتُ أنني رئيس جمهورية، وأربع نساء يقدمن لي صحنًا عليه خروف محشي بالزبيب واللوز والأرز، ويتسابقن على إطعامي، وكان رئيس الوزراء أمامي يقف خلفه طبّاخوه يحملون صحون الحلوى، وأحدهم يمسح ما علق من طعام حول فمي!

ثم ضحك وأقسم قائلًا:

- والله إنني قَمت وأنا شبعان!

تحدث رجل وفمه مليء بالبسكويت وطار رذاذه في الوجوه:

- نحن هنا أكلنا وشربنا، لكن لا ندري ما يجري لنسائنا في الصالة هناك!

رد أحدهم:

- يا جماعة، نناشد الأمم المتحدة...

رد عليه رجل آخر:

- يا أخي، الأمم المتحدة هي سبب ما نحن فيه منذ أن بعثت مندوبها، وذهب الناس في جدال عقيم حول أزمة البلاد!

شعر البعض بالعطش، فراحوا يبحثون عن مياه للشرب. بعضهم شرب الحليب وقد تغير طعمه. حين وجد رجل في الستين من عمره ما يريده في الرفوف صاح:

- وجدته! وجدته!

هتف صديق له:

- ماذا وجدت يا أرخميدس؟! قانونًا جديدًا؟!

جلس الرجل يأكل هناك بنهم، وبعد أن أروى عطشه قام وأخذ معه قدر ما يستطيع مما وجده، ليعلن الخبر لمن يعاني من مرض السكري باكتشافه. أثناء عودته اصطدم بثلة من المسرعين إلى المخزن. وصل ولثته

تنزف دمًا، وراح يدُلّهم على المكان، ورسم لهم خارطة مُعقدة ومازلت لثته تنزف.

عاد الكثيرون يتسابقون إلى المخزن، رغم معارضة بعض العقلاء وهم يحملون صفائح السمن والزيت، وأكياس الدقيق، السكر... إلى أن تحولت الصالة مخزن أغذية هي الأخرى. بقي بعض المدعوين يقضون على ما نهبوه. واكتفى البعض بالسخرية مما يجري.

***

الأحد، العاشرة صباحًا:

زادت حدة رائحة الحمامات في الصالة. وجدوا المساحة الضيقة بين البيت المجاور والصالة في الهواء الطلق تصلح لأربعمائة مؤخرة. تراجع الحياء والوقار. لا يستحي البعض أن يكشف عورته أمام الآخرين. سال البول على البلاط، ولم يعد في تلك المساحة موطئ قدم نظيف، ثم راحوا يقضون حاجتهم في زوايا المخزن المفرغ، وهكذا اطمأن الجميع لحمّاماتهم.

فكر العريس مجيب المِقدام بعروسه، وهو يتناول ما جلبه له أصحابه، ثامر ومحمد وناجي، من مخزن الأغذية. يضحكون على عرس لم يحدث في أي عصر من العصور؛ فالمدينة بكاملها تحتفل معه بالذخيرة الحية: مدافع، قنابل، دبابات... بدلًا من تلك المفرقعات المزيفة، واشتركت طائرات التحالف المقاتلة بصواريخها أيضًا، وهي تترصد أي فريق من المتناحرين سيكون النصر حليفه. هتف ثامر:

- عرس سيسمع به العالم! يهْناك يا عريس، يهْناك! الناس تحتفل بك في الصالة منذ يومين ونصف، والرصاص في المدينة لم يتوقف!

رد ناجي غاضبًا:

- يا ثامر، يكفي مزاحًا، العريس يشتي ينام مع عروسه!
- وهي أيضًا تحتفل بها النساء هناك في صالة حي السعادة، لم يفارقنها. يا أخي هذا عرس ما فيش مثله، أيضًا سيزف الزعيم إلى عرشه مرة أخرى!

أسكت ضحكهم دوي انفجار كبير بجوار الصالة، وتلاه آخر. صعد أحد المدعوين على كرسي العريس، وأخذ يلوم أنصار الله بأنهم هم الذين أجبروا الزعيم على اتخاذ هذه الخطوة ضدهم. تقدم منه ثلاثة رجال يشتمونه، واشتبكوا معه. وقف آخرون مع المتحدث، وانزاح العريس جانبًا، خوف أن يحدث له شيء، فقد قُتل مؤخرا عريس في ليلة عرسه برصاصة طائشة.

خرجت الثعابين من مخابئها بخفة، وطُعن ذلك المتحدث قبل أن يخرج مسدسه كضربة استباقية ضد النوايا السيئة التي لا تزال قيد الفكرة. أخذوا المصاب إلى باب الصالة وروحه تخط دمها على الأرض حتى باب الخروج، ينادون الجنود وهم يمشون في آخر الشارع بهدوء وطمأنينة. أقبلوا لكنهم لم يستطيعوا فِعل شيء له، كانت هناك بقعة كبيرة من الدم أمامهم. قيل للعسكر إنه من شباب ميدان التحرير، مناصري الرئيس الأسبق أثناء ثورة ١١ فبراير ٢٠١١م. أبقى العسكر جثته أمام الصالة

ليأخذها رافعو جثث الشوارع. عاد الآخرون يستنكرون الجريمة النكراء، وضج الغضب في الصالة من حادثة قتل الرجل لمجرد أنه قال رأيه، وتسرب الخوف إلى قلوب الكثيرين من الغد القادم.

أخذ ذوو الرأي يتشاورون في الأمر، كيف يحلّون المشكلة. منهم من قال:

- السن بالسن، والبادئ أظلم!

قال رجل من القتلة:

- هو البادئ، جنى على نفسه، نحن في عرس، وكلنا تضررنا من الحصار، ولولا أننا وجدنا ما نأكله كنا سنموت مثل الديدان، وهذا الرجل بعد أن شبع قام ينهق!

اجتمع كبار القوم وقرروا ديّة المقتول عمدًا، وحكموا بأن يصل القَتلة إلى أهل المقتول بثورين كبيرين وعشر بنادق وديّة مُسلّمة إلى أهله، وغرامة مالية على الطرفين للمُحكّمين تُقدّر بنصف الديّة. وافق أهل المقتول؛ فالقضاء في شلل تام.

لم يجد العريس هاتفه، فراح يلوم نفسه، ولم يعد يهمه ما يحدث في الخارج. ولم يخبر أصدقاءه بما كان يرعبه. أخذ يمشي في الصالة ذهابًا وإيابًا، يحدّث نفسه "كانت في ثياب النوم (لطم جبينه) فضيحة! ترى مع مَن تلفوني؟! ماذا لو فتحوه وشاهدوها؟! يا الله! (صفع وجهه مرة أخرى) آه! ليتها لم تطاوعني! كان غباء مني ومنها! يا فضيحتاه! لو تداول الناس صور نهلة سيقتلني أهلها!

أخبره ثامر بأن الحرب ستتوقف، وسيلتقي عروسه قريبًا، ولا داعي للقلق... لكن مُجيب المِقدام لم يكن يسمعه، ولم يعد يهمه العرس، وراح يلعن الحرب واللصوص الذين سرقوه في يوم عرسه، والمصاهرة التي قدّم نفسه لإخطبوطها. لم تكن نهلة جميلة؛ لكنه الثراء، الذي جعلها تبدو فاتنة في عينيه، سحرته بعينيها النجلاوين.

أحس بحاجة إلى الحمام، فذهب إلى الزقاق بين الصالة والبيت المجاور. عاد وحذاؤه ملطخ بالبراز دون أن يعلم...

***

الأحد، الحادية عشرة ظهرًا:

أخذ الشيطان استراحة قصيرة من الرقص في المدينة، وخفتت طبوله، واستبشر المدعوون بتوقف الحرب، وراحوا يتشاورون في أمر الذهاب إلى صالة النسوة، واجتمعوا بجوار باب الصالة:

- يا رجال! هيّا نعيد نساءنا إلى المنازل! لا ندري كيف قضين وقت الحرب هذا! ماذا يقلن عنّا؟!

الذين كانت لديهم كثير من أوزار المخزن لم يوافقوا على الخروج، حتى تهدأ الحرب ويجدوا سيارات لحمل غنائم الحرب. ركب الشجعان تهورهم وحملوا معهم بعض المدعوين. تحركوا كقافلة عرس يقودون السيارات ببطء إلى آخر الشارع، رافعين عمائم بيضاء من نوافذ السيارات، كجنود مُستسلمين في الحرب العالمية الثالثة، المشتعلة بين الإخوة في الوطن العربي على تركة الأجداد المُمزقة.

قبل أن تنعطف أول سيارة نحو اليمين في نهاية الشارع، رُشقت بالموت، فدفعهم للتقهقر إلى الخلف بسرعة، وبقيت السيارة التي كانت في مقدمة الموكب في موقعها، بينما الذين كانوا في داخلها خرجوا مهطعين نحو الصالة. البعض لم يجد ما سلبه من المخزن، حيث تهافت عليه ذوو الأيدي الطويلة. راحوا يشتمون:

- شعب سارق بن سارق! كبيرهم ربّاهم على السرقة!

بقي صاحب السيارة التي كانت في الصدارة يراقبها بحسرة وهي تحترق، ويلعن تهوره... بينما المتهورون يضحكون على تصرفهم أثناء رشقهم بالرصاص، ثم جلسوا يفكرون بأمر النساء في الصالة.

***

دخل أربعة جنود حوش صالة النساء، وبأيديهم أجود أنواع القات. من المتوقع أن يشتد سعار المعركة بعد مضغه. كان الفضول يقظا كعادته، يشاهد الجنود من خلف ستائر النوافذ، وهم يتناولون اللحم، ويشربون مشروب الطاقة ماركة "الثور النطاح"، وأمامهم كمية من الخبز وأكياس القات. قالت إحداهن والجوع يمسح شفتيها:

- يأكلون الحنيذ كأنه يوم العيد، ونحن نتضور جوعًا!
- كيف لا يقدمون لهم الحنيذ وهم يقدمون أرواحهم لنصرة قادتهم؟!

في اللحظة التي قام فيها أحدهم من موقعه ويفتح كيس القات، ويبتسم لأغصانه، هوت قذيفة هاون بجوارهم، واصطبغ المشهد بلون

الموت. بُترت ساق الجندي الواقف، وتناثر الآخرون أشلاء في الساحة. صاح بعض النسوة وخرس البعض الآخر، وعلا العويل، وخيم الخوف والفزع. أسرعت الفضوليات إلى الحمامات وأكفهن تطبق على أفواههن، وخسرن وجبة الصباح هناك. ومما زاد من الغثيان رائحة البراز المتكدس في ممر الحمامات.

بين الفضوليات امرأة خائفة أمسكت بساق صديقتها الحامل في شهرها السابع وهي تقف بجوارها. أحست بللًا في ساقها. سألتها بتعجب:

- هل تبولتِ يا سميحة؟!

كشفت الحامل عن عورتها وصاحت:

- سألد يا نصرة!

واستلقت على ظهرها؛ فقد انفتح رحمها فجأة. أسرعت امرأة أخرى، وكذلك الطبيبة، والطفل يخرج دون عناء. النسوة تحيطها، يتفرجن على الحياة الجديدة وهي تستنشق رائحة البارود. أفادت الطبيبة بأن الطفلة في شهرها السابع وبحاجة إلى تدفئة وعناية. لم يجدن موسًا لقطع الحبل السري، فأسرعت إحداهن بحذر تسأل الجنود. وجدتهم يتذمرون مما حصل لقتلاهم، ويطلبون تعزيزات أخرى. هتفت المرأة الخائفة:

- عندنا امرأة ولدت في الصالة، نشتي موس!

رد عليها أحدهم محتدا:

- الناس تموت وهذه تتولد! ارجعي قبل أن تسقط على رأسك قذيفة! جاءت تولد في الصالة! نساء آخر زمن!

رأت المرأة الأشلاء ما تزال مبعثرة في الساحة. دخلت وهي ترتعد، وكفاها على رأسها، جلست تلطم فخذيها وراحت تصف برعب المجزرة التي رأتها، وعيناها مستقرتان دون حراك، ثم فجأة تقيأت على الفرش.

لم تجد الطبيبة وسيلة لقطع الحبل السُّري إلا قطعة زجاج، وراحت الأم تحضن ابنتها للتدفئة من البرد.

أسرعت الصحفية ترسل نصها: امرأة تلد طفلا قبل أوانه في الصالة المحاصرة. وسط ذهول النساء التعيسات، وأشلاء الجنود تحيط بالصالة.

***

حمامة وهي تبحث عن ذهب جارتها لم تهتم لصراخ الأخريات، وهن يضعن أيديهن على آذانهن أثناء رعد المدفعية، ولا تزال تبحث في وجوه النسوة عن حِبّة خال. حين وجدت امرأة سمراء عريضة المنكبين وفي ذقنها بثرة سوداء، فكرت حمامة أنها المرأة التي أخفت الذهب، وفقًا لقول العرافة، "بجوار القذارة"، فدست يدها فجأة تبحث بين فخذيها ووسطها، ثم ابتعدت عنها ودموع الحزن على خديها، ترجو في نفسها "لو أن الصالة تُحاصر إلى أن أجد الذهب". وديعة أيضًا أصابتها حُمى العار ولم تعد تحدث أحدًا، ترجو أن تسقط السماء كِسفًا على الصالة، كما فعلت طائرات التحالف، ودمرت صالة عرس على رؤوس المدعوات في مدينة الحديدة.

بينما كانت النسوة في شمال الصالة يتحدثن عن المولود، كانت اللواتي في جنوبها يتحدثن عن أضرار أفيون بلد الحكمة. تحدثت إحداهن عن الفاسدين السابقين والحاليين والذين سيولدون، فعمّ الضحك أرجاء

الصالة، وحدث جدال حاد: كيف تقارن (المتحدثة) القات بالأفيون؟! ورحن في جدال عقيم. إحداهن أقسمت وهي تشير بإصبعها نحوهن:

- يا نسوان، والله الذي سيقلع القات سيقلعونه من الأرض أولًا، كما حدث لمُحسن العيني، رئيس حكومة سابق. الحكومة تحصل على دخل من ضرائب القات. حرام نحرمها من هذا الدخل!

سألتها إحداهن بحيرة:

- ولو قطعوا علينا القمح المستورد من الخارج يا أختي...؟!
- لا، النصارى ما يعملوهاش، ما همش خبثاء!

وإذا بامرأة تقول بغضب:

- النصارى خبثاء يا عميلة أمريكا و"إسرائيل"! أنت تقفين معهم يا داعشية! أنتم مع العدوان!

حدث الشجار بين مؤيدة ومعارضة، وتبعثرت خصلات الشعر في القاعة، ومن راحت تشكو عض الأكتاف والمؤخرات... وفي الوقت نفسه كانت هناك مجموعة من النساء حول سميرة اليفرسية، يتحدثن عن الآخرة والزهد والفرق بين أسماء الله الحسنى... كان قد ازداد عددهن حولها، بالذات المُسنّات، تأثرن بوقارها وحديثها وهي تدعو إلى السَّلْم والسلام، وأن الإنسان من روح الله، فكيف يُسفك دمه من أجل هباء منثور في الدنيا؟! وحدثتهن عن البعد عن الحفلات المبتذلة والغناء، وليس هناك

من عيب إن كان هناك دفٌّ يطرب الأسماع أثناء العرس والموالد... كانت إحداهن تنصت لما تقوله سميرة وهي تلوي شفتيها، وراحت تسخر قائلة:

- أنتم الصوفيين تدخلون الشرع في إشكالات، تقرون ترك الصلاة للواصلين، تتبركون بالقبور وتدعون الأولياء كدعائكم لله، لا تعترفون بالجهاد في سبيل الله، تفسرون القرآن بطريقتكم ولكم مذهبكم الخاص.

كانت سميرة تنصت والبسمة مشرقة فيها، ثم ردت على المرأة السائلة بما أدهشها. قالت:

- أما الشريعة والعبادات فأنتم تفهمون قشورها، وتقرؤون القرآن دون تأمّل معانيه، تعملون بظاهره ولا تفهمون باطنه، حتى الصلاة تؤدون ظاهرها وتتركون باطنها. أما دعاؤنا الأولياء وزيارة قبورهم فنحن نرى أن الأولياء هم ورثة الأنبياء، وزيارة قبورهم للعِبرة وتذكرنا بمصير الإنسان ولنرى الدنيا دار فناء. وبالنسبة للجهاد أيتها السائلة العزيزة فجهاد النفس أولًا، ولم يعد الجهاد في عهد رسول الله هو نفسه بعد موته.

احتجّت المرأة السائلة على ما قالته سميرة عن الجهاد، وقالت بتهكم:

- تزعمون أن الله يكشف لكم المستور، وترون الله!

ردت سميرة بابتسامة عذبة:

- هذه مرتبة لا يصل إليها إلا العارفون والواصلون إلى الله، ولنا في سيدنا الخضر قدوة حسنة. أما المُشاهدة فهي تكمن في حضور أنوار التجلي والمكاشفة في القلب، وهي طمأنينة القلب بنظرة مولاه، فلا يشك بأنه إيّاه في التلذذ بمحياه، ويحيا بروح رؤياه، بلا طول ولا عرض ولا رفع ولا خفض، ولا سماء ولا أرض ولا كيف ولا أين ولا أذن ولا عين. ألا ترين ما نحن فيه الآن من حرب، كل يقتل أخاه باطلًا بسبب فتاوى الفقهاء؟!

غضبت المرأة السائلة وذهبت وهي تهجو المتصوفة وأتباعهم... وانتشر الخبر في الصالة أن سميرة الصوفية هزمت "مُزنة" الفقيهة.

سارعت الصحفية تكتب بسرعة: مجادلة عقيمة بين الفقه والتصوف في صالة العرس، وانتصر الشيطان.

جلست سامية إلى جوار سميرة وهي تشعر أنها أهانتها في السابق بإجبارها على الرقص، وطلبت منها المسامحة. قالت لها:

- ثامحيني يا ثميرة، ما كنت أعرف أن جدك الثيّد أحمد بن علوان!

ثم قبّلت يدها وقالت:

- أنتِ أكيد دعوت عليّ. أثناني ثلاث تكثّرت! أرجوك ثامحينِي!

***

الأحد، الخامسة مساءً:

شاهدت الفضوليات أناسًا يرتدون ثيابًا بيضاء يجمعون الأشلاء في أكياس بلاستيكية. أخبرتهن الشرطية بأنهم من الصليب الأحمر الدولي

وظيفتهم جمع الجثث وحصرها، وقد أخذوا المرأة التي ماتت في الصالة والتي أصيبت في الشارِع... خرجت الشرطية واصطحبت مجموعة منهن، ليقابلن الجنود، وهن يتلفتن بخوف. هتفت إحداهن:

- نريد طعامًا!
- سنموت جوعًا!
- الأطفال في الصالة!

جاء الرد من خلف المتراس:

- يا منحوسات، سيظنونكن جنودًا في لباس النساء.

إحداهن ازدادت فيها قرحة المعدة ألمًا، رأت أرغفة مبعثرة في حوش الصالة؛ فقفزت كقطة تجمع الأرغفة، ولحقت بها ثلاث نساء، وعدن يضحكن وقد تحدين الموت. استمتعن به كالبسكويت ووزعن القليل منه للأطفال. وقفت الصحفية فوق كوشة العروس، وأخذت تهتف بالنساء بحماس:

- لقد طفح الكيل ونزل البلاء كالسيل، أهلنا لم يقدروا أن ينقذونا، لم يرحمنا المتناحرون على السلطة، لماذا لا نتواصل مع المنظمات الدولية الإنسانية لتنقذنا من هذا الحصار! ليعملوا هدنة؛ فقد مر علينا ثلاثة أيام لم نأكل إلا الفُتات ونشرب الماء الملوث، وسُدت المجاري وتكوم البراز في الحمامات وممراتها. الرائحة تزكم الأنوف... هذا لا يطاق، لا يطاق! وهم لا يكترثون بنا، لا يفكرون إلا بنصرهم!

قالت إحداهن:

- لم يعد لدينا تلفونات تعمل. لماذا أهلنا لا يتواصلون مع المنظمات الإنسانية؟!

أخذ الكثير منهن يفكرن بمنطق الصحفية؛ كيف يعدن إلى بيوتهن؟! وساد النقاش أرجاء الصالة:

- نخرج ونغامر!
- لا يا أختي، أني ما أشتيش أموت بعيد عن جُهالي! هؤلاء مجرمون، سيقتلوننا!
- أقول لك عَد نموت جوعًا هَانا[٣٥]!
- لا، أنا أخاف الدم، أموت جوعًا أحسن!

كانت الصماء تسأل بخوف عما يجري، وهي ترى بكاء النسوة. أما حمامة فمازالت تائهة تتنقل بين الوجوه؛ لعلها تجد الذهب وفقًا لمَا قالته العرافة. وذات الثديين تعاني من الصداع، تلعن الشيطان الذي أرسل أحد جنوده ليكشف عورات النساء. ووديعة منهارة، مستلقية في الصالة، تتذكر إقبال وهو يصور عُريها في الحمام. والنسوة يخففن عنها. يتساءلن: لِمَ كُل هذا الحزن العميق؟! فكرت في الانتحار، لكن العار سيظل يطاردها حتى القبر. أعطت لنفسها أملًا بأنها ستجد التلفون، ويجب أن تعمل مثل حمامة وهي تبحث عن الذهب حتى بين أفخاذ النسوة. أما الفتاة التي

(٣٥) هُنا.

تبولت في الحمام أمام إقبال، فأقنعت نفسها بأنها ستنكر أنها تلك المرأة في التلفون.

سقطت امرأة مغشيًا عليها، فصاحت امرأة بجوارها معلنة وفاتها. وصرخت فتاة أخرى بأنها لم تأخذ دواء السُّكري والقلب منذ ثلاثة أيام، وأنها الآن مريضة ولم تعد تستطيع أن تصبر أكثر. وأخذت تصرخ:

- لا بد أن نغادر!

صعدت امرأة سمراء على الكرسي المخصص للعروس، وخطبت بالنسوة لمغادرة الصالة، قائلة:

- سنخرج جميعًا دفعة واحدة، ونكوّن مسيرة. أظنهم سيسمحون لنا بالخروج، لن يطلقوا النار علينا!

كان غضبها مضحكًا، وشعرها الأشعث بدا كشجرة كروية في المهد. ردت عليها أخرى بأن هناك جبناء يستلذون بالدماء، ولن يجدن مواصلات؛ فالبلاد في حالة طوارئ.

اقتربت حمامة من تلك المتحدثة السمراء، رغم أنها فتشتها من قبل، وراحت تحدق في وجهها. رأت حَبّة سوداء في ذقنها، فسحبت سروالها للأسفل فجأة؛ فضحكن على سوء نظافتها، وعمَّ الضحك أرجاء الصالة. لم تعد حمامة تعي ماذا تفعل! ترى الذهب تحت حفاظات النسوة كما أخبرتها العرافة بأنه قرب قذارة، وراحت تفتش القمامة رغم أنها فتشتها مرات عدة. في الوقت نفسه كانت دبّابة تزمجر بجوار الصالة، أطلقت قذيفة واحدة فانغلقت الأفواه الضاحكة، انبطحت الكثيرات منهن أرضًا، وهناك

مَن تكورت على نفسها كالعصفور، ومن وضعت كفّيها على أذنيها، بمن فيهن الصماء، وتدافع البعض نحو الحمامات ودسن البراز في الممر هناك. قامت العمياء تتخبط في مشيها وتعثرت بامرأة، وارتطمت مرتين بأعمدة الصالة، وأخذت امرأة تهدئها بأن سقف الصالة لم يسقط. كن كالنمل الباحث عن النجاة، إلا سميرة المتبتلة لم تبالِ، كأنها لم تسمع شيئًا. مسبحتها في يدها على الدوام. تحدث نفسها "ليس مَن دعاء إلى عصبية".

أسرعت الفضوليات إلى النافذة المُطلّة على الشارع والكفوف تغطي الآذان، يشاهدن الدبابة وهي تنفث الحِمم نحو الجانب الآخر. فجأة شاهدن مقدمتها تتحطم واشتعلت فيها النيران، وخرج منها جنديان بخفة، ثم خرج آخر بنصفه الأعلى، وهو يصيح:

- أنقذوني!

صعد أحد الجنود ليرفعه بقوة؛ لكنه سقط قتيلًا بجانب الدبابة المحترقة، والتهمت النار الجندي العالق فيها. كانت الفضوليات يصرخن:

- حِرق! حِرق! مات! الدبّابة احترقت!

وتدافعت الأخريات بجوار النوافذ ليشاهدن الجندي والنار تلتهمه. أسرعت بعضهن تتقيأ في الحمامات، وداست الخراء. ومنهن من لم تستطع الوصول، فأفرغت ما في معدتها في الصالة، مادة صفراء وقليلًا من الماء، ولم تجد ما تنظف به القيء فقلبت الفرش على الجهة الأخرى. بقي الجندي المتفحم يتدلى على الدبابة المحترقة دقائق معدودة، ثم انفجرت الدبّابة أشلاء، ما دفع الفضوليات إلى الخلف، وارتطمن بالأخريات وسقطن على الفرش. نهضن يتحسسن أنفسهن هل أصبن. إحداهن شاهدت بالقرب

من نافذة الصالة الخارجية قذيفة دبابة، فصرخت بأن القذيفة ستنفجر بجوار النافذة! انبطح الكثيرات من حولها ووضعن أيديهن على رؤوسهن، والأخريات اللواتي كن يمشين في الصالة انبطحن كالأخريات، لم يدرين لماذا! بقين هكذا دقائق، ثم أخذت الصحفية تتحدث:

- وحوش! شياطين! معقول ما ينقذوناش؟! سنموت من الجوع! غير ممكن! يمكن أن تسقط علينا قذيفة، مقبرة جماعية! نحن بلد الحروب والنقمة وليس بلد الحكمة! مازالت معركة علي ومعاوية مستعرة! غيرنا يحفر في المستقبل ونحن نحفر في وحل الماضي! اللعنة على الجهل!

في الوقت نفسه كانت حمامة تتحدث مع العرافة، تؤكد لها أن ذهبها مازال داخل الصالة. أما وديعة فأصبحت ترى نفسها في عيون الشباب رواد المواقع الإباحية؛ لكن أملها في العثور على الهاتف هو الذي يبقيها على قيد الحياة.

***

الأحد، السادسة مساءً:

عانى البعض من الإسهال مرة أخرى وسرن يبحثن عن طوب؛ ليرتفعن عليه أثناء التبرز في ساحة الحمامات، بعد أن ساح البراز أمامها. شكت البعض أنهن أصبن بالكوليرا. عادت إحداهن من الحمام تصيح:

- كوليرا! كوليرا! أُصبنا بالكوليراااا يا نسوان!

خيّم الصمت لحظة وراح البعض يرى الأرواح وهي تغادر الأجساد الذاوية. اضطرب النمل الأسود خوفًا من موت يطأ قريته. اللواتي كن يستلقين على ظهورهن وقفن هلعًا، والعجائز استوين جالسات في حالة رعب. تساءلت الصماء لماذا الخوف في عيون النسوة والفزع، وحين عرفت أخذت تصرخ صراخًا مخيفًا. خرج البعض إلى الجنود يستغثن باكيات:

- أنقذونا! أنقذونا! كوليرا! أنقذونا!

لكن الجنود كانوا مشغولين بطاعون آخر. أشاروا لهن بألا يقتربن منهم أكثر، وأخذت امرأة تهتف بأنه غضب الله، حرب من الأرض وحرب من السماء، هذه ذنوبنا، لا حول ولا قوة إلا بالله، ونصحتهن بالاستغفار.

أسرعت الصحفية تكتب بعجلة في التلفون وترسل: مقبرة جماعية في صالة العرس المحاصرة. الكوليرا أصابت العشرات.

اعتلت الطبيبة كرسي العروس، واقتربت منها الأخريات كُلٌّ تبث خوفها للأخرى، وراحت تخبرهن بأن الإسهال أسبابه عديدة والكوليرا أحدها، والأرجح في حالتهن أنه بسبب الماء الملوث المتبقي في خزان الصالة، هذا كل ما في الأمر. لكن الكثير لم يقتنع برأيها، ورحن في جدال فيما بينهن. قالت إحداهن:

- سنحصي الحالات ونعزل كل مصابة بالإسهال عن الأخريات. إذا ازدادت حالات الإسهال سنقرر ما سنفعله، وكُل مَن تعاني من الإسهال فلتأتِ إلى هنا لمصلحة الجميع، لا تخفن، فنحن لم نتأكد أنها كوليرا!

تقدمت عشر نساء، بينهن العروس وقد بدت شاحبة، والبعض استحين ولم يخبرن الأخريات. إحداهن كانت تبكي بحرقة أنها ستموت بعيدًا عن أولادها، إن لم يكن بالحرب فبالكوليرا أو الجوع. والبعض رحن يلطمن خدودهن، فهن لم يخبرن أزواجهن بذهابهن إلى الصالة. كن يفكرن أنهن سيعُدن قبل الغروب. وأخرى أخفت ذهبها في جدار البيت دون علم أحد... وبدت الصالة مناحة كبرى.

ازداد عدد النسوة حول سميرة، وراحت تستغفر بصوت مسموع، تحرك رأسها بخفة يمنة ويسرة، وتردد: "الله، الله، الله...". يسألنها أن تدعو الله ليكشف عنهن البلاء، وهي تشير لهن بذكر الله، حتى أن النساء في جنوب الصالة ووسطها حسدن الجمهرة التي حولها، وتساءلن كيف جذبت القلوب إليها بهذه السرعة؟!

***

شعرت نسرين، العمياء، بمغص، ولم ترد أن تخيف الأخريات، فنادت صديقتها تهاني لتصحبها إلى الحمام، فشك البعض ورحن يتهامسن فيما بينهن بأنها تعاني من الكوليرا. وصلت إلى آخر الصالة، وهتفت إحداهن للطبيبة:

- يا دكتورة، انظري، ها هي العمياء تمسك على بطنها!

ضج الخوف في الصالة مجددًا، ما دفع الطبيبة لتخرج رغم خوفها من القنص، لتطلب من العسكر أن يبلغوا السلطات ويرسلوا المحاليل الوريدية والأدوية خشية أن يتفشى الوباء. سألها أحد الجنود إن كانت تأكدت أنها كوليرا، فأخبرته أن وباء الكوليرا متفشٍّ في المدينة منذ فترة،

واحتمال أن إحداهن كانت مصابة ونقلت العدوى للأخريات. لحقت سامية بالطبيبة وهي تصيح بأن حالة ثانية زادت.

عادت الطبيبة غاضبة من تصرف سامية، وذهبت إلى العمياء تسألها إن كان لديها إسهال شديد، فأخبرتها أنها تبولت فقط. أما التي كانت تتقيأ فأفادت بأنها شعرت بالغثيان من البراز الذي في ساحة الحمامات. نظرًا لذلك أمرتهن الطبيبة بالخروج إلى حوش الصالة للتبرز هناك. خرجت ثلاث نساء معًا يعانين من الإسهال. أخذت إحداهن مكانًا للتبرز والأخريات يحجبنها عن رؤية العين.

شاهدهن أحد العسكر فتوارى عنهن سريعًا. فكرت الطبيبة بإسعاف مؤقت، وهو استخدام الملح مع السكر. ساعدها أحد الجنود بأن كسر باب بيت مجاور للصالة ووجد كمية من الملح والسكر. أحضرت الطبيبة الكثير مما وجدنه من ماء الخزان، وقمن بترشيحه مرات عدة.

شربت اللواتي يعانين من الإسهال، وخف الجفاف لديهن. حتى اللواتي لم يعانين شربن لسد الجوع أيضًا. وسارعت إحداهن تقترح على الطبيبة إضافة الهيل مع السكر والملح كدواء مؤقت إلى أن تأتي لجنة طبية من الصليب الأحمر لفحص المرضى. أسرع اثنان من الجنود يفتشان الدور الرابع للعمارة التي يعتلونها، وأحضرا كمية من السكر والهال والقرنفل، وأخذت الطبيبة توزع ثلاث حبات بالتساوي على المصابات، ورحن يمضغنه كالعلكة؛ لكن الكمية لم تكن كافية. تقيأت بعضهن في الصالة، فازداد الخوف أكثر. أخذت إحداهن تصيح بشكل هستيري:

- القيء في الصالة، والخراء تراكم في الحمامات! لا نستطيع أن نتحمل أكثر! هذه حياة حيوانات!

فجأة دخل الصالة أفراد من لجنة الصليب الأحمر، فشخصت عيون النساء نحوهم بخوف واستعطاف. وبعد فحص البراز تبين أن المرض ليس كوليرا. وفي لحظة تحول الخوف إلى ضحك؛ لكن إشاعة تفشي الكوليرا جعلتهن يفكرن بتنقية الماء جيدًا، لكن عليهن إيجاده أولًا!

لم تعد النساء باستطاعتهن التسلُّل إلى العمارة المجاورة، لتكاثر الجُند في حوش الصالة. هرعت البطون الجائعة تتوسّل إلى صباح التي ذهبت لتصطحب جُنديين إلى داخل العمارة، والمعارك الطاحنة تشتد شراسة. أحدهم رفض أن يترك موقعه، والثاني وافق مباشرة. عادت صباح إلى الصالة واصطحبت امرأة أخرى شمرت عن ساعديها وقالت: لن نموت جوعًا. أسرع الثلاثة إلى الدور الثالث والرابع من العمارة لكنهم لم يجدوا شيئًا؛ فقد نُهبت الشقة. لم تجد غير كيس رز فيه تسعة كيلو، وكيس ملح صغير، وحوالي خمسة كيلو سكر وكيلو بطاطس، وأربع وعشرين شمعة.

حمل الجندي الفرن، وصباح حملت الرز والبطاطس والسكر، والمرأة الشجاعة حملت أسطوانة الغاز على رأسها، جرت بسرعة وهي تعبر حوش الصالة؛ خوفا من شظية شيطانية أو رصاصة تخترق الأسطوانة. ابتهجت الوجوه وهلّلت البطون الجائعة، طربا، وكانت قدور الطبخ متوفرة.

واحدة من المتحلقات حول سميرة المتبتلة زعمت أن هذه من بركات سميرة؛ كانت تدعو الله أن يرفع عنهن البلاء والكوليرا والجوع.. راحت المرأة تهتف: كراماتك يا سيدة سميرة، كراماتك.. وإذا بامرأة ترد

عليها وتصفها بأنها مجذوبة[٣٦]. لكن سميرة أنكرت قائلة بأن الله هو المغيث ويعلم بحالهن، بلا كرامات من أحد.

طلبت صباح ولّاعة من أحد العسكر وقمن بطهو الأرز. هتفت إحدى الطباخات: نسينا الملح. قالت أخرى: ضعي السكر بدل الملح! أسرع الأطفال نحو السكر ونافستهم بعض النساء. كأنهم النمل فوق قطعة حلوى!

وزعن الأرز بما لديهن من صحون وعلب الفول والماء الفارغة. وأكلن وجبة الإنقاذ على ضوء الشموع. إحدى النساء كانت محتفظة في حقيبتها بسيجارة تسمى "صاروخ العقل"، أرادت أن تنسى وضعها، فوجدت في ضوء الشموع فرصة. أشعلت السيجارة ودخنتها بلهفة، ثم تلتها نوبة ضحك. راحت النساء يرثين لحالها! كيف تضحك في وقت عصيب كهذا؟! بينما المرأة التي ولدت راحت تبكي رضيعتها في حضنها، خرجت إلى دنيا تبكي فيها جوعًا؛ فلم تجد لها الأم حليبًا. في الأثناء كان الطفل ثامر هو وأصدقاؤه حاضرين، فذهبوا إلى ذات الثديين الضخمين واستنكروا عدم وجود الحليب فيهما. سمعتهم المرأة المرضعة التي كانت تبكي رضيعها في البيت وحليبها قد بلّل صدرها، فأقبلت ترضع المولودة، والأطفال يضحكون طربًا؛ لكن طربهم تحول إلى حزن، فقد فارقت الرضيعة الحياة بعد ذلك، وأقبل الأطفال يشاهدون جثتها بحزن، وأخذ البعض يواسي الأم في مصيبتها، وحاولت امرأة أن تقنع الأم الثكلى بأن

---

[٣٦] متدروشة

تسلّم الجثة للعسكر ليدفنوها مع قتلاهم، فبكت الأم وعلا نحيبها وهي تردد أنها لن تدفن رضيعتها معهم، قائلة:

- كيف أدفن ابنتي مع مَن قال عنهم الرسول (ص) إن القاتل والمقتول في النار؟!

غابت الشمس والرضيعة في حضن الأم تفكر بدفن جثتها في المقبرة. وبينما كان دعاء النساء أن يزيل الله كربتهن، وينشدن الأمل للعودة سالمات إلى بيوتهن، كانت أعداد الجنود تزداد بجوار الصالة، ودخل بعضهم الحوش للبقاء هناك، يدخنون، ويضحكون وهم يرمقون نوافذ الصالة من حين لآخر. لم تعد النسوة تخرج إلى الحوش للتبرز، وتضايقت الفضوليات فلم يعدن يقتربن من النوافذ.

دونت الصحفية: ماتت الرضيعة المولودة في صالة العرس المحاصرة، متأثرة بعدوى أمها المصابة بالكوليرا.

❋ ❋ ❋

السقوط في الخراء

ذهبت الشرطية صباح إلى الحمامات والشمعة في يدها، كانت الخرساء هناك تتبول. داست الشرطية البراز وانزلقت أرضًا على بطنها. حين أرادت أن تقف سقطت مرة أخرى على ظهرها. قامت الخرساء وهي تضحك تريد أن تساعدها، فوجدتها مُغمى عليها. حينها كانت الشرطية ترى نفسها في بستان مترامي الأطراف من الورود والزهور، وهي مستلقية على عشب أخضر يمتد على مساحة واسعة، والنسيم العَطر يهبُّ عليها من كل جهة، تسمع خرير الماء يجري بالقرب منها، وزقزقة العصافير، والفراشات تقف على ورود في قبضتها، ومجموعة من الطواويس تمد أعناقها تنظر إلى وجهها. كانت تبتسم لتلك الطبيعة الخلّابة. أثناء ذلك الحلم الرائع كانت الخرساء تحاول أن تخبر النسوة بما جرى وهي تضحك، وتحرك شفتيها دون جدوى. أخذت تشير بيدها إلى أن الشرطية صباح سقطت في الحمام. لم تفهمها النسوة، فأمسكت معصمي امرأتين وقادتهما إلى ساحة الحمامات، لتجدا الشرطية ملقاة على ظهرها مبتسمة. وما إن توقفتا عن الضحك، هبّت الفضوليات يجرين إلى الحمامات يحملن الشموع. استعادت وعيها ونظرت إليهن بعيون دائخة، خيّل إليها أن النساء في البستان يحملن شموعًا للاحتفال بعيد ميلادها الثالث والثلاثين.

أرادت النساء مساعدتها على النهوض، فلم يجدن فيها موضعًا نظيفًا ليمسكن به، وهن يسددن أنوفهن، فكان عليها أن تخلع ثوبها، وذهبت إحداهن تبحث لها عن ثوب يستر عريها، في ظل معركة حامية

الوطيس في الخارج، أشد من الأيام الثلاثة السابقة. اعتقدت المرأة الصماء أن الحرب انتهت، وأخذت تسأل بفرح:

- هل وقفت الحرب؟! مَن انتصر؟! متى سيسمحون لنا بالخروج؟! كانت ليالي سوداء في حياتنا، لن ننساها!

لكنها كانت في حيرة من عدم مبادرتهن بالخروج، حتى رأت بعضهن يخرجن من صالة الحمامات. دفعها الفضول للإسراع إلى حيث مصدر الضحك، وشقّت الزحام لتشاهد الشرطية مستلقية على ظهرها بين الخراء وتبكي بصمت.

نهضت صباح لتجلس على مؤخرتها ومسحت كفّيها بملابسها، ثم وقفت على قدميها وهي تضم رجليها، حتى لا تنزلق مرة أخرى، والنسوة يكتمن ضحكاتهن؛ فيكفي ما تعانيه وهي ترى نفسها في وضع مزرٍ لم تتوقعه يومًا. أخذت الشرطية تنزع ملابسها قطعة قطعة، ولم يتبقَّ غير السروال الداخلي وقد تلوث أيضًا، وراحت تنظفه بجزء من ثوبها النظيف. أما شعرها فعجزت عن تنظيفه. عريها كشف ثدييها المترهلين. كانت النسوة يتعجّبن وهن يتأملن جسدها الذي يبدو كالعجائز، ولولا مساحيق التجميل على وجهها لظهرت عجوزًا شمطاء. راحت تنظف نفسها وهي ترتجف من البرد، ولم تشاهد نظرات الشفقة والرثاء. إحداهن أحضرت قنينة ماء كانت تخفيها عن النسوة، حيث لم يتبقَ معهن إلا القليل من الماء في أرضية الخزان. نظفت صباح شعرها؛ لكن الرائحة بقيت تزكم الأنوف، فذهبت امرأة وأحضرت عطرًا وأعطتها لتعطّر شعرها. ارتفع صوت إحدى النسوة:

- حرام يا نسوان! المكلف[٣٧] عريان، استرنها ربنا يستركن، يكفي ما فعلتن بها بالأمس! ما هذا النصيب الذي يجرى لها؟!

أحضرت امرأة مُسنة قماشًا ناصع البياض تحمله حيثما ذهبت. قالت إنه كفنها، وهكذا كانت الكثير من نساء المدينة ينمن بعباءاتهن أثناء قصف الطيران طوال الأعوام الثلاثة الماضية... حين رأت الشرطية القماش الأبيض تشاءمت منه، وفضّلت العُري والبرد على أن ترتديه، ثم حصلت على ثوب آخر ليس على مقاسها، بدت به مضحكة.

أسرعت الصحفية تدون وترسل رسالتها: سقوط مدوٍّ في صالة عرس حي السعادة المحاصرة. الشُّرطية صباح تغرق في الخراء.

***

فوجئت النسوة باندلاع حريق في شمال الصالة، وهن يتندرن بما جرى لصباح. هبت الشجاعات لإطفائه؛ لكن لا جدوى، ورحن يشتمن اللواتي لم يحذرن من خطر الشمع. ارتبكت قرية النمل، وعلا الصياح، وتحوّل الضحك إلى نواح، وأول مَن هربت من الصالة هي تلك التي توفيّت رضيعتها، تحضن جثة ابنتها. ولولا مبادرات ذوي الرأي الراجح بالحل لاحترقت الصالة كاملة. أسرعن بسحب الفرش التي لم يصلها الحريق، ووضعن حدًا له. كن يستغربن من امرأة وقفت أمام الحريق تحاول أن تطفئه بسرعة، والهلع فيها يصيح، وكفاها على جانبي رأسها، واتسعت عيناها:

---

(٣٧) المرأة.

- الذهب! الذهب!

وبعد انطفاء الحريق راحت تنكش في الرماد وهي تسعل، والأخريات يتفرجن وهي تعبث بالرماد، إلى أن التقطت بالعود كتلة سوداء، نفخت ما عليها من رماد، فبان بريق الذهب. لامتها صديقتها التي تجلس بجوارها قائلة:

- لِلمَهْ[٣٨] يا أمة الرزاق تقولي إنك ضيّعتي ذهبش؟! قصدش يعوّضش زوجش؟! الله يشلش! لِلمَهْ أخفيته داخل الفرش؟!

وسارت حكايتها قِطعة لُبان تلوكها الألسن، أن زوجها تزوج عليها فتاة صغيرة، وذلك الذهب ثمن سكوتها وحتى لا تتحدث كيف أن زوجها أصبح من ذوي الشوارب الطويلة أثناء الحرب... وأخذت النساء تتحدث:

- سبحان الرزاق، يعطي مَن يشاء، ويسلب ممن يشاء! حِكمة الله سبحانه جلّ شأنه، أغنى المتنفذين وأفقر الموظفين!

دونت الصحفية في تلفونها: حريق هائل يلتهم صالة العرس المحاصرة، وتمخض عن سبيكة ذهب.

***

الأحد، العاشرة ليلًا:

في الجانب الشمالي من الصالة صاحت إحدى النسوة في العتمة أن ذهبها سُرق من حقيبتها، فأسرعت اللواتي يخفين حُليهن يتحسسن

(٣٨) لماذا؟

كالعُمي، يفتشن عنها. اتضح لإحداهن أنها سُرقت أيضًا. ذهبت المرأة تندب ضياع ثروتها:

- سبعمائة جرام، والصدرية أربعمائة جرام يا سرق! الله أكبر على السارقة!

وراحت ثكالى الحلي يتهمن الشعب بأنه تربّى على السرقة والرشوة... وأخفت الأخريات بهجتهن وأبدين العكس. في الوقت نفسه بقيّت ثكلى طفلتها يقظة، خائفة من إحداهن أن تأخذ جثة الصغيرة وتسلمها للجنود.

اللواتي فقدن حُليهن من قبلِ سرّهن ما حدث مؤخرًا. وجدن مَن يشاركهن مصيبتهن. قامت المرأتان اللتان فقدتا ذهبهما مؤخرًا في الظلمة تتلمسان الطريق إلى باب الصالة، داستا البعض ولم تتأسفا. إحداهما ارتطمت بأحد الأعمدة وأخذت تشتم المهندس الذي قام ببناء الصالة. جلستا في بوابة الخروج لتفتيش الأخريات عند الخروج إلى حوش الصالة ليلًا. لم يشعرن بالنوم ولا بالبرد وهما تحرسان باب الصالة. إحداهما راحت تسب وتشتم الأخريات. ردت عليها امرأة غاضبة وطلبت منها ألا تسب الجميع، وأن تبحث عمن سرقت حُليّها. لكن المنكوبة أخذت تسبها وتلعنها، وتتهمها بأنها سرقتها، وقامت تتحسس طريقها نحوها، فتعثرت وسقطت على ثلاث نساء، وشتمت مَن تعمدت إسقاطها. نهضت لا تدري ممن تنتقم! وأغضبها أكثر أن الكثير منهن أضحكهن سقوطها. ظلت تهدد بأنها بنت فلان وتقدر أن تفعل أشياء كثيرة للصالة... كان في سبّها فحش مخزٍ. ذكرت أنها ستفتش حتى العانات إلى أن تجد ذهبها، وأنها قد تستعين حتى بالعسكر. ثم عادت إلى باب الصالة تمشي كالعمياء، تجرّ

قدميها حذر أن تتعثر. عادت إلى مكانها تتحدث مع رفيقة نكبتها وهي تذرف الحزن. أخبرتها أنها هي التي أمرت زوجها بتبديل النقود إلى ذهب، وحدثتها عن نكبتها الأولى، وهي استشهاد أخيها في الحرب الثالثة في صعدة وابنها البكر في عمران. المرأة الأخرى أيضا حدثتها عن عمها الذي استشهد في حرب صيف ١٩٩٤م.

***

الأحد، الثانية عشرة ليلا:

زادت المعركة ضراوةً، وأصوات الدمار تهز نوافذ الصالة. بعض النائمات تحت النوافذ نهضن فزعًا من سقوط الزجاج عليهن. دبَّ الرعب في النفوس، فراحت كل واحدة تحضن التي بجوارها دون شعور، بينما المرأة الثكلى تحضن جثة ابنتها وتدفئها، ووميض الموت الخاطف يتخلل العتمة. المضحك في هذا الظرف أن إحداهن راحت تسب التي بجوارها، وتخبرها بأن ما تفعله في هذا الظرف جنون. ردت عليها الأخرى بأنها لم تقصد شيئا من احتضانها... أسعدهن حظًا هي الصماء، تنعم بالنوم. أما الخرساء فازدادت خرسًا. وسميرة اليفرسية لم تتوقف عن التسبيح وذِكر الله، وكذلك تابعاتها اللواتي ازددن حولها. وازداد تردد مريضات السكري على الحمامات، أو على الحوش في ستر الليل.

اللواتي أكلن الخبز المبعثر في حوش الصالة كُنّ يشعرن بالشبع وبنشاط غير معتاد، ولم يعدن يخفن كالأخريات من دوي القذائف، حتى مأساتهن لم يذكرنها. إحداهن راحت تردد النشيد الوطني: "رددي أيتها

الدنيا نشيدي..." كلما سمعت دوي مدفعية أو قذيفة، تود أن تخرج إلى الشارع لتشاهد المعركة عن قرب.

لم ينمن؛ فالمعركة الطاحنة في الحي تزداد ضراوة، واللواتي فقدن ذهبهن مؤخرًا ينتظرن أول خيوط الفجر، ليفتشن الأخريات، والشرطية في صفهن، وكذلك المرأة التي اقترضت الذهب من جارتها. وجدن أن المتقاتلين لم يعطوا أي اهتمام لمعاناتهن، ولا يفكرون إلا في النصر، ليبدو المنتصر هو المخلّص والمنقذ للشعب. سيطر هذا الإحساس الجماعي عليهن جميعا، ووحد شعورهن مجددًا، وتلاشى ما في قلوبهن من كُره للبعض، ولم تعد الصالة منقسمة على نفسها، لإحساسهن بالمصير الواحد وأنهن على سفينة واحدة.

الكثيرات منهن ظللن يقظات، بعضهن شعرن بدوار يشبه النعاس، فنامت كل واحدة مستندة على زميلتها أو الحائط، ومن كانت مستلقية ينتفض جسدها أثناء النوم... استمرت المعركة حتى أذان الفجر. حينها نهضت البعض وتيممن بجدار الصالة وأقمن الصلاة جماعة كُلٌّ في مكانها، ما عدا المريضات منهن أدينها على جنوبهن. أمّت الجميع هذه المرة سميرة اليفرسية، وراحت تدعو أثناء الصلاة:

- إلهي! يا مجري الرياح! يا فالق الإصباح! يا مُنزل مطر السماء، ورازق الدودة في الصخرة الصماء! ها نحن نطرق بابك، نشكو ممن لا يهابك، وينسى عذابك!
- آميييييين

- إلهي! نرجو عدلك والإنصاف، ممن لا يهابك ولا يخاف! فأنزل غضبك على الأشرار، من جعلوا الدنيا نارًا.
- آميييييين

كان صوت النسوة يعلو ودموع التوسّل على خدودهن، وهن يُعقّبن كل دعاء بـ "آمين"، حتى اللواتي لم يتعودن على نطق تلك الكلمة. سمع العسكر ابتهالاتهن، وأطلق أحدهم زخّات من الرصاص ضد "الفئة الباغية"، خصومهم في الجهة المقابلة من الشارعِ؛ فرد عليهم هؤلاء بالمثل، والنساء مازلن يبتهلن إلى الله... في الوقت نفسه كانت "حمامة" تدعو دعاءً آخر، ألا تقف الحرب حتى تجد ذهبها. بينما كانت "وديعة" تدعو أن تجد هاتف إقبال. وكذلك المرأة التي تحضن جثة طفلتها تدعو أن تقف الحرب لتدفن جثة ابنتها.

أحاطت النسوة بسميرة، وقالت لها إحداهن:

- مُش معقول! مِن أين أتيتِ بهذا الدعاء؟! والله يا سميرة إن دعاءك هذا يصلح عند الكعبة! فعلًا نحن مظلومات في الدنيا، نلد فلذات أكبادنا ليتقاتل بهم القادة!

وقالت أخرى:

- يا أختي، هذه حكمة الله، ولا اعتراض على حكمه!

تدخلت الصحفية قائلة:

- لو حكمتْ البلاد امرأة مثل أروى بنت أحمد الصليحي أو الملكة بلقيس، لعمَّ السلام في اليمن كاملًا...

اعترضت إحداهن بغضب:

- لا يمكن أن تكون النساء قوّامات على الرجال؛ فهُن ناقصات عقل ودين، وهذه حكمة الله! كيف تسمعن للمتصوفة أصحاب البدع؟!

وتكفلت الصحفية بالرد، ساردة لها ما حققته المرأة من إنجازات في العالم، ولولا سيادة الرجل على المرأة بقوته، وعدم ترك المجال لها أن تأخذ حقها في المجتمع، لكان العالم أفضل حالًا مما هو عليه، ولساد السلام في العالم، فهي ترى أن الرجال أولادها، ولن تسمح لهم بأن يقتتلوا على كرسي التسلط... قِلة منهن أيدن الصحفية، ورحن في جدال عقيم.

❊ ❊ ❊

السماء تمطر وحلًا

الاثنين، فجرا:

ذهبت سامية مع ثلاث نساء للتبرز في حوش الصالة، وحشد من الجنود يقف هناك، فعادت تخبرهن أن الحشود تزداد ويبدو أن المعركة في بدايتها. ثم ذهبت إلى الحمامات وهي تشعر بالغثيان، فلم تجد مكانًا نظيفًا تضع قدميها دون أن تتسخ. وجدت كيسًا بلاستيكيًا، فتبرزت فيه ثم ربطته. رأت ذلك أفضل طريقة صحية لفترة ما، حتى تزول الكُربة؛ فقد حوّل الجنود حوش الصالة إلى ثكنة عسكرية، ولم تعد الحمامات تتسع لمزيد من القذارة. عادت تخبر النسوة بفكرتها... وباشرت النساء تجمع الأكياس في أرجاء الصالة، وما أكثرها تلك التي تستعمل لحفظ القات! وجدنها فكرة جيدة بأن يرمين القذارة إلى الشارع. واقترحت امرأة أخرى تنظيف الحمامات حيث يمكن أن تدوم الحرب لفترة أطول، وأن هذا ليس جديدا عليهن في البلاد. لم يقنعهن كلامها، وإذا بحمامة تتذكر ما أخبرتها به العرافة، بأن ذهبها "في صُرة بجانب القذارة". حدثت نفسها بصوت مسموع كأن بها مسًا من الجنون "لقد فتشت القمامة مرات عدة، وفتشتُ النسوة وتحت الفرش، ولم يعد هناك مكان آخر غير الحمامات. لطمت جبينها: "يااااه! في صُرة حيث البراز، هذا ما تعنيه العرافة، لماذا لم أتنبه لذلك؟! يمكن أن تكون امرأة أخفت الذهب في كيس بين البراز هناك...". وأخيرا صاحت ببهجة:

- أنا سأجرف خراءكن إلى الأكياس!

كانت منذ أن فقدت الذهب تعيش في عالم مأساوي، تفكر كيف تخرج من مأزقها، فمستقبلها هي وجارتها مرهون بإيجاد الذهب. تدعو الله حتى في أحلامها أن تجد الذهب. ترى أنها تسبّبت في أذيّة جارتها الطيبة أيضا، وتارة ترى الحي يصفها بالسارقة وسمعتها في الوحل. لو كان يخصها هي ما حزنت كل هذا الحزن، ولو أن لديها مالًا لعوضت جارتها فلا تحزن كثيرًا، لكنها تعيش على معونات المنظمات الإنسانية، منذ انقطع راتب زوجها. وأخذت تحدث نفسها "الأخدام ينظفون المجاري والحمامات، ولم يحدث لهم شيء، سأفعل مثلهم لمدة ساعة، وماذا في هذا الأمر؟!". تذكرت قول أحد السياسيين الشرفاء: "تلويث اليدين بالخراء ولا تلويثها بحرب قذرة...".

***

اجتمعت حمامة باللواتي فقدن حليهن، وأخبرتهن بما فكرت فيه. وجدنها فكرة جيدة، فهن لم يفتشن الحمامات. أخبرتهن أنها ستجرف البراز إلى الأكياس، وما عليهن إلا أن يساعدنها في رميه إلى الشارع من نوافذ الصالة، وستحضر الباقيات لمساعدتهن.

بدأت حمامة عملها في الخامسة والنصف صباحًا، والنساء ينظرن إليها باشمئزاز! أول شيء فكرت فيه هو البحث في كُتل البراز الكبيرة بين الطوب. تحدث نفسها بأنها ستكون الوحيدة التي تجرف الخراء وتضعه في الأكياس؛ حتى تتأكد بنفسها مما ستجرفه، والأخريات ينقلنه ويرمينه إلى الشارع. تنقّلت بحذر خشية أن تضع رجلها في البراز، فتلقى مصير الشرطية صباح. اكتظ رأسها بغيوم سوداء وعاصفة هوجاء، تكاد تمطر

رجزًا على النسوة في الصالة، كتلك التي تنبئ بها سماء المدينة. بدأ هبوب الرياح يحرك شبابيك الصالة. غطت يدها بكيس بلاستيكي، وعملت مجرفة من كرتون ورق مُقوّى، وقبل أن تبدأ باشرت تتحسس بمجرفتها ما عساه يكون صلبًا وسط تلك الكتل من البراز. ملأت الكيس الأول وناولت الأخريات ليضعنه جانبًا. تحسست كتلة كبيرة بين طوبتين وأحست بشيء صلب. هتفت بجنون:

- وجدتووووووه!

وانتزعت كيسًا بلاستيكيًا أسود صغيرا من بين البراز. تهافتت اللواتي فقدن ذهبهن، واتسعت الأحداق، وهبّ جمع من النساء يتساءلن: ترى لمن يكون؟! اللهُ أكبر على السارقة! ولا حتى الشيطان يفكر أن يخفيه بين البراز! إحداهن نصحت حمامة ألا تفتح الكيس! حتى تصف كل واحدة ذهبها الضائع. وصفت كل منهن ذهبها... وأخذته المرأة التي يخصها، فكانت تضحك ودموع الفرح على خديها، حلفت إنها ستكافئ حمامة، بينما المرأة التي أخفته هناك كانت تشاهد حمامة وهي تقترب منه، وتدعو ألا تجده.

حضرت الموقف سميرة اليفرسية وهي تُسبّح، وخلفها ثُلة من التابعات. قالت:

- الخراءُ وضع الخراءَ بين الخراءِ!

أسرعت الفضوليات جريًا إلى ممر الحمامات. رحن يراقبن حمامة وهي تجرف البراز إلى الأكياس، فيتأففن ويرثين لحالها. فجأة تقدمت امرأتان شمرتا عن سواعدهما، وراحتا تساعدانها بجرف الكُتل الصغيرة

خلفها، بينما هي تجرف الكتل الكبيرة. كانتا تعملان بجد، تنظفان وتمسحان البلاط جيدًا، مما أدهش الأخريات. تجرفان البراز إلى الأكياس دون تأفف، وكأنهما تجرفان طينًا، واللواتي فقدن ذهبهن يتناولن الأكياس ويضعنها جانبًا. كان جنون المرأتين يعمل بطريقة تثير الاشمئزاز، يجرفان البراز أحيانًا بأيديهما دون تغطيتها بأكياس. بدا للأخريات أنهما أصيبتا بلوثة جنون، لا يدرين ماذا حدث لهما منذ أن أكلن ذلك الخبز المبعثر في حوش الصالة، وفيه بعض قطرات الدم!

***

تجمهرت النساء عند الحمامات، وتزاحمن هناك. البعض يضحكن، والبعض يرثين لحمامة، ومَن تسخر قائلة:

- ستجدين الذهب يا حمامة، استمري!
- يكون داخل تلك الكومة الكبيرة، اجرفيها!
- هناك ستجدينه بجوار المراحيض، حيث الكتل الكبيرة!
- هيه! أنتما، امسحا البلاط جيدًا بعدها. أنتما تجيدان عملكما!

أسرعت المرأتان إلى النوافذ، ومزقتا ستائرها بأسنانهما، وعادتا تمسحان بها ممر الحمامات. كانتا في حالة مزرية. لم يشعرا بأن ثيابهما تلوثت، وكانت إحداهما تحك شعرها وتمسح أنفها بيدها الملوثة. رأت النسوة أنهما أصيبتا بالجنون بسبب الحرب، التي يمكن أن تسبب للمرء أكثر من ذلك. أناس يحدثون أنفسهم في الشارِع، مشردون ينامون على قوارِع الطرق، أناس انتحروا في مدن عدة، منهم مَن أحرق نفسه وأطفاله!

مشاكل أسرية، فكر جديد يُصاغ، قيم تنهار، أيديولوجيات تتغير، ومبادئ تُباع...

لم تكل حمامة في عملها، وكذلك المرأتان جمّعتا الأكياس المملوءة بالبراز في ساحة الحمامات، وفي الوقت نفسه كانت العاصفة الهوجاء تزداد في الخارج، اختلط رعد السماء ببرق الشيطان، وأضرم جيشه حرائق عدة لحفلته في المدينة. طلبت سامية من الأخريات أن يرمين الأكياس إلى الشارع. ترددن بتأفف، فحملت هي أول كيس ورمته، وتبعتها المرأتـان، ثم تبعتهن أخريات. كانت تلك الأكياس ترتفع في الهواء عاليًا وهن في الدور الثاني. تعجبن من تلك القوة التي أتتهن فجأة. وفي الوقت نفسه كانت العاصفة تأخذ الأكياس لترمي الجنود ببعضها، وهم يرشقون الرصاص باتجاه خصومهم. اندهش الجنود من أين يسقط الوحل الكريه عليهم؟! فذهبوا خلف المتاريس ينظفون ملابسهم ووجوههم.

تجمع الأطفال قرب النوافذ يهتفون:

- زِدن! زِدن! أيوة! أيوة...
- تلك المرأة أقوى!
- لا، تلك أقوى؛ شوف إلى أين ترفع الكيس!

كانت الأكياس ترتفع إلى الأعلى، والعاصفة تبعثرها في الجو، وتحمل الخراء إلى الجهة الأخرى، حيث الجنود الخصوم خلف متاريسهم، فيمكثون يمسحون وجوههم وثيابهم متأففين! أكثرهم ضررًا لم يعد يرى جيدًا، ويخاف أن يطلق النار خبط عشواء.

***

أكملت حمامة تنظيف ممر الحمامات، والمرأتان خلفها تمسحان بالستائر. بقي داخل الحمامات، حيث الكتل الكبيرة هناك. تدفعها ثقتها بأنها ستجد الذهب كما وجدت الأول، وكذلك إيمانها بما قالته العرافة. إحداهن رثت لحال المرأتين وهما يجرفان البراز بأيديهما، فأحضرت قطعتي زجاج صغيرتين من زجاج الشبابيك المكسورة وأعطتهما، وراحتا تجرفان بهما ما تبقى من البراز خلف حمامة، ولم تباليا بالدم إذ سال من أيديهما، وكذلك لم تحسا بالألم. وقفت المشاهدات في حيرة مدهشة يتساءلن:

- ماذا جرى لهما؟! حتى الألم لا تحسان به! لو أنهما في حالة من الجنون ستشعران بالألم! أيّ جنون أصابهما؟!

عمل حمامة الجاد، وكذلك المرأتين، دفع الأخريات للإسراع بنقل الأكياس، ورميها لترفعها العاصفة عاليًا وتبعثرها وتمطر بها الجنود. بعضهم راح يحك جسده بشدة، ويصيح:

- الجرب! الجرب! ما هذا؟! إنها حرب كيماوية!

شعر الآخرون بالشعور نفسه، وراحوا يحكّون جلودهم، منهم من حكّ ظهره بالجدار، ومنهم من حكّه بالبندقية... ويلعنون أنفسهم لاشتراكهم في الحرب!

حمامة لم يعترها اليأس. كانت قد نظفت خمسة حمامات، والعرق يقطر منها. ويئست الأخريات من العثور على ذهبهن الضائع، بينما المرأة التي وجدت ذهبها في البداية في حالة طرب ونسيّت الحرب. كانت حمامة تغرز عود قات طويلًا في الأحواض، على أمل العثور على الذهب.

لم تعرف النسوة أن العاصفة كانت تأخذ أكياس الخراء عاليًا، وتمطر بها الجنود، ليتذمروا من لعنة نزلت عليهم من السماء. فوجئن بوقف إطلاق النار في الجوار، ماعدا أصوات قنابل وقذائف (آر بي جي) مازالت تُسمع بالقرب من بيت الرئيس الأسبق (الزعيم). غادرت النساء الحمامات، وبقيت حمامة تنظف الحمام السادس، وتتحسس كتل البراز بالعود. وقفت لحظة تمسح عرق جبينها بظهر يدها، ثم لطمت جبينها وقالت لنفسها "لم أفتش السيفونات!". دفعها الأمل لتذهب جريًا إلى الصالة لا تلوي على شيء. لم تعد النسوة مستغربات جنونها. عادت تحمل على رأسها مسندين. لم تسمعهن يخبرنها أنها وسّخت فرش الصالة بقدميها. وضعت المسندين على بعضهما. اعتلتهما، وفتحت غطاء سيفون الحمام الأول، وأوقعت غطاءه على أرضية الحمام فتحطم، إلى أن فتحت غطاء سيفون الحمام السادس، وأدخلت يدها لتجد فيه كيسًا صلبًا. وقف تنفسها برهة، وكذلك عيناها، وفي تلك اللحظة شاهدت خيولا تجري، حمامًا يطير، قرودًا تضحك، زوجها وهو يُقبّلها، قطيعًا من البقر الوحشي يجري في المرج... حين رأت الذهب الذي تبحث عنه اخترقت أشعة شمس سقف الحمام، ورأت النجوم تسكب نورًا ذهبيًا، وباقات ورود تنهمر عليها وسرى عبيرها في شرايينها.

عادت تمشي لا تشعر بالجاذبية، والذهب بين يديها، خرست وعجزت عن التعبير عن فرحتها. وقفت أمام النسوة وهي ملطخة بالبراز، وهن يبتعدن عنها بتأفف. صاحت فجأة:

- وجدتُ ذهب جارتي! وجدتُ ذهب جارتي!

جلست تبكي فرحًا. تزاحمت حولها الأخريات اللواتي فقدن ذهبهن؛ ليتأكدن مَن يخص. وتظاهرن بأنهن يباركن لها، وعُدن إلى أماكنهن يشتمن أنفسهن لحضورهن الصالة مرتديات الذهب للتفاخر في زمن الحرب والفقر. أسرعت امرأة وأحضرت لها ثيابًا لترتديها وتبارك لها، وتشيد بعزيمتها التي تُكللها الثقة.

***

هدأت العاصفة، وراح الجنود ينظفون ثيابهم ووجوههم، ويحكّون أجسادهم والدهشة والفجيعة فيهم تتحدث "غضبت علينا السماء، فأمطرتنا خراء! هذا ليس وحلًا؛ رائحته كريهة". ضحك أحدهم وقال:

- علمتُ أن السماء قد تمطر ضفادع، أسماكًا... كما حدث في اليابان ذات مرة! أما أن تمطر خراء فهذا مستحيل!

قال آخر:

- قد يكون هذا سلاحًا كيماويًا جديدًا يُجرب على حقل التجارب!

لم تعد النسوة يسمعن إلا دوي انفجارات بعيدة. يفكرن "قد يكون قصف طيران التحالف على أهدافه المعتادة!". وفرحن حين عادت إحداهن من عند الجنود تخبرهن بوقف إطلاق النار بقرار من القيادة. اندفع بعضهن للخروج والغبطة على وجوههن، يسألن الجنود متى سيخرجن من الصالة؟! أخبروهن بما أحزنهن من احتمال تجدد الاقتتال في أي وقت، في حال فشل وسطاء التهدئة كما فشلوا سابقًا. عند عودتهن لم يخبرن الأخريات بالحقيقة؛ بل حثثنهن على مغادرة الصالة، وأن هذا هو الوقت المناسب للخروج.

صعدت الصحفية على كوشة العروس، وبجوارها سامية، وتحدثت بصوتٍ مرتفع، وتجمع الكثيرات يستمعن لها. قالت:

- اسمعن يا نسوان، إذا بقينا هنا سنهلك من الجوع والعطش، فلا ندري كم ستدوم الحرب، والماء نفد من الخزان، وإذا خرجنا قد يكون في ذلك النجاة، بلغ صبرنا الزُّبى، فلنغادر قبل أن يعود هؤلاء المجانين مرة أخرى للاقتتال! هيّا، ولتعملن ما لم يعملهُ الرجال! سنخرج وما صار لنا صار!

كانت سامية بجوار الصحفية تشيد بكلماتها، وتهتف بحماس وهي تشد قبضتها. اعتلت امرأة غاضبة كرسيًا، وقد بدت كمجنونة، بشعرها الأشعث، وفستانها ذي الذيل الطويل الممزق من الخلف، نتيجة دهس النساء عليه، وراحت تشتم وتلعن المتقاتلين على السلطة، الذين حاصروهن منذ عصر الجمعة. تصف معاناتهن من الجوع والرعب، وموت البعض في الصالة، ووصفت الصالة بأنها أصبحت زريبة حيوانات. ورفعت حذاءها عاليًا وهتفت:

- فلنخرج ونواجه الجبناء بأحذيتنا!

رحن يرددن بعدها:

- فلنواجه الجبناء بأحذيتنا!

وراحت الأم الثكلى، وهي تحضن جثة رضيعتها والدموع على خديها، تطوف بين النساء وتخبرهن:

- أريد أن أدفن جُثة ابنتي، ستتعفن في حضني! حرام عليهم يحاصروننا! لن أسلّم جثة ابنتي ليقبروها بين قتلاهم!

أيد الجميع فكرة المغامرة للخروج. تعالت الزغردات، ورحن يعددن العروس للقاء العريس. أسرعن كُلُّ تلملم أشياءها... وأسرعت القِلة منهن بارتداء العباءات السوداء على عجلة. أمّا الأخريات فلم يخلعنها منذ بدء الحرب؛ حتى إذا متن في الصالة يكنَّ مستورات. صفّق الأطفال هاتفين:

- سنخرج! سنخرج!

ذهب بعضهم إلى ثكلى طفلتها وهي تفتش عن حقيبتها المفقودة. سألها طفل:

- أين ستقبرين بنتكِ يا خالة؟
- في مقبرة خُزيمة.
- لا، اقبريها في المقبرة التي بحارتنا. كُل يوم، كُل يوم، يقبرون خمسة، عشرة موتى. يعملون لبعضهم زفّة مثل زفة العرس، يرقصون، يضربون الطبول، ونساء تزغرد!

***

الاثنين، السابعة صباحًا:

احتشدن أمام الجنود كُتلة بشرية يلفها السواد والغضب. البعض سافرات الوجوه لأول مرة في حياتهن. صاح بهن أحد الجنود وهو يحك رقبته:

- ممنوع الخروج الآن، سنخبركن قريبًا!

أحدهم وقف أمامهن حاملا بيده أداة الموت. قال وهو يحك ظهره:

- ارجعن يا شِظوي[٣٩]!

صاحت به إحداهن:

- ابتعد من طريقنا يا عِجهام[٤٠]!

قالت أخرى:

- "باعدوا من طريقنا"!

عرف بعضهن مغزى كلمتي "شضوي" و"عِجهام"، وهن يشاهدن أثر الخراء على ثيابهم، والمبعثر حولهم، فسرت بينهن ضحكة أخلجت الجندي. كرر أحدهم تحذيره:

- عُدْن، الوضع غير آمن، قد تتجدد الاشتباكات فجأة في أي وقت، وأنتن في الطريق. ممنوع الخروج حتى تأتينا الأوامر بالسماح لكُنّ بالمغادرة.

صاح آخر:

- مَنْ أنتن؟! تتحدين الموت! عُدن، لسلامتكن! سيظن الجانب الآخر أنكن جنود مُتخفون في زي نساء لاختراق صفوفهم.
- لن نموت جوعًا يا جُبناء...

سكت الجندي وتوارى خلف متراسه ينتظر سقوط أول امرأة، وهن يتدافعن للخروج إلى الشارع. كان الجنود يستمعون إلى سامية وهي تشجعهن وتبث الحماس فيهن وهي تهتف وتُكرر:

---

(٣٩) حشرة كبيرة بأجنحة سوداء تخرج من تحت الأرض بعد المطر بداية موسم الزراعة يأكلها الناس مقلية.

(٤٠) نمل أبيض يمنع الشضوي من الخروج وينتف ريشها حتى لا تطير.

- نحن لِثنا حُثالة، لن نعود إلى الثَّالة (نحن لِسنا حُثالة، لن نعود إلى الصالة).

خرجن، في المقدمة نسرين العمياء وصديقتها رانيا وذات الثديين الضخمين ونبيلة الصحفية، وكذلك سميرة اليفرسية وهي تُسبِّح وتدعو: "يا حافظ! يا حافظ!" وخلفها تابعاتها في الصف الأول يمسكن بأيدي بعضهن. كانت امرأة تتلو القرآن: (*وَجَعَلْنَا مِنْ بَينِ أَيدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَينَاهم فَهُم لَا يُبْصِرُون*). في الصف الثاني كانت العروس بثوب العرس، تغطي شعرها المبعثر على كتفيها برداء أسود، وأمها وأختها والتي قُتل زوجها في الصالة الكبرى، وتلك التي تحضن جثة رضيعتها بيد وتلوح بالأخرى. أما الأطفال فكانوا في وسط الحشد، وسامية تقف في آخر المسيرة تقول إنها تشد أزر المؤخرة، والنساء اللواتي حرّضن الأخريات على الخروج كن في وسط المسيرة والمؤخرة.

عاد بصر العمياء فجأة ففوجئت صديقتها رانيا وهي تمسك بيدها، حين شاهدتها لم تتعثر أثناء مرورهن على مطب للسيارات المنتشرة في الشوارِع، وخاصة أمام بيوت المسؤولين، وكذلك الحفر التي أحدثتها القذائف. مشت نسرين دون مساعدة. قالت رانيا بدهشة:

- نسرين، أنتِ ترين؟!
- عاد بصري يا رانيا فجأة!

وراحت تهتف مع الحشد النسوي الراجل المُتشح بالغضب والسواد:

- لا للحرب الملعونة! لا للعملاء والخونة!

كانت وديعة في ميمنة المسيرة؛ علّ رصاصة تأخذها إلى الجحيم وتدخل في كشف الشهداء. تهتف:

- الموت لإقبال الملعون!

المرأة التي فقدت صوتها في الصالة وجدت نفسها تهتف عاليا:

- لا للحرب الملعونة! لا للعملاء والخونة!

تقدمت المسيرة النسوية في الشارع رتلًا مهيبًا يردد الشعار. تذكرن تلك المسيرات النسوية في عام ٢٠١١م، المطالبة بإسقاط النظام، في بلادٍ تأكل أبناءها منذ قرون من أجل كرسي الحُكم.

مررن بجانب منازل واجهاتها مهدمة، وعمارات عدة محروقة وآثار الرصاص عليها كجدري الشيطان. رأين الجثث التي لم ترفع من الشوارع بعد.

***

شاهدت إحداهن جثة إقبال بثيابه النسوية، ووقفن يهتفن:

- اللهُ أكبر منتقم جبّار، قُتل الغدّار!

ما إن رأته وديعة قفزت فوق جثته كالضبعة الجائعة، ومزقت ما تبقى من ثيابه كأنها تمزق جسده، ووجدت التلفون مربوطًا حول فخذه الأيسر بجوار خصيتيه. أخذت حجرًا وهشمته كأنها تهشم رأس أفعى، وهي تشاهد نفسها في حمام الصالة في وضع مخزٍ. فتشت عن الشريحة الخارجية لتأكلها؛ لكنها لم تجدها!

كان الجنود المتناحرون يشاهدون ذلك الحشد الغاضب المتشح بالسواد. شعر جنود كِلا الطرفين بالخزي، ووقف أحدهم إجلالًا لمسيرتهن واتخذ وضع التحية، وهن يمشين أمامه يبدو عليهن الإرهاق والتعب. الكثيرات منهن حاسرات الرؤوس سافرات الوجوه، غاضبات. أخذ الآخرون يفعلون مثل ذلك الجندي، يُحيّون أمهاتهم وأخواتهم.

تفاجأت الخرساء وهي تهتف بقوة:

- لا للحرب الملعونة! لا للعملاء والخونة!

والنساء يرددن ذلك الشعار، سمع سكان حي السعادة وهم في بيوتهم متخفين، وقد كانت تصلهم ما ترسله الصحفية عبر وسائل التواصل الاجتماعي ولم يحركوا ساكنًا. مد الرجال والنساء رقابهم بحذر من نوافذ المنازل كزرافات خائفة من قنص الصيادين. زغردت النساء من النوافذ وهن يشاهدن العروس بثوبها الأبيض، وخرجن إلى شرفات المنازل والسطوح يزغردن ويشجعن المسيرة.

انعطفت المسيرة من شارع جيبوتي إلى شارع عَمّان في اتجاه شارع الستين، نحو مقر "الأمم المتحدة" على أحد سفوح "عطان"، وشاهدن مُسلحين بثياب مدنية يسوقون أمامهم عشرات الجُنود بثيابهم الرسمية، حاسري ومنكسي الرؤوس، ترهقهم ذِلة، يقادون في طابور طويل إلى المجهول...

❊ ❊ ❊

نبذة عن الكاتب

ولِد أحمد قاسم علي العريقي في الأعروق، حيفان، محافظة تعز- عام ١٩٥٨، درس المرحلة الأساسية والإعدادية في تعز، منطقة الأعروق، في مدرسة الشهيد عبد الرحمن مهيوب أنعم، والمرحلة الثانوية في صنعاء في مدرسة جمال عبد الناصر. حصل على منحة إلى باكستان عام ١٩٧٩م حيث درس في جامِعةِ "بهاء الدين زكريا" ملتان، باكستان وحصل على بكالوريوس صيدلة عام ١٩٨٧م، وبعد العودة عمل مديرًا للتموين الطبي في المستشفى الجمهوري ثم قائمًا بأعمال مدير مركز القاع للأمومة والطفولة، في صنعاء، ثم انتقل إلى المركز الوطني لعلاج الأورام ولازال يعمل فيه مسؤولًا عن الرقابة.

يكتب الشعر الشعبي والقصة والرواية والحكاية الشعبية. وهو عضو في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وعضو في نادي القصة اليمني (ألمقة).

الإصدارات:

- رواية "يوم مات الشيطان" مؤسسة هنداوي، القاهرة ٢٠٢٢م.
- رواية زهر الغرام، تأهلت إلى القائمة الطويلة في جائزة الشيخ راشد بن حمد عام ٢٠٢٠م.
- رواية "زُربة اليمني"، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٩م.
- تعرية، رواية، دار مقام القاهرة، ٢٠١٨م.

- كُرات الثلج، مجموعة قصصية من وحي التراث عربي-إنجليزي، ٢٠١٧م.
- غلطة قلم (مجموعة قصصية)، عبادي للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.
- دعوة الحقول، (ديوان شعر)، ٢٠١٩م.
- الرماد الأخضر، (ديوان شعر)، عبادي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- مقامات العريقي، شعر، مركز عبادي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.
- أعمال قيد النشر: ٤ روايات.

البريد الإلكتروني: Ahmed.mkamat@gmail.com

❊ ❊ ❊